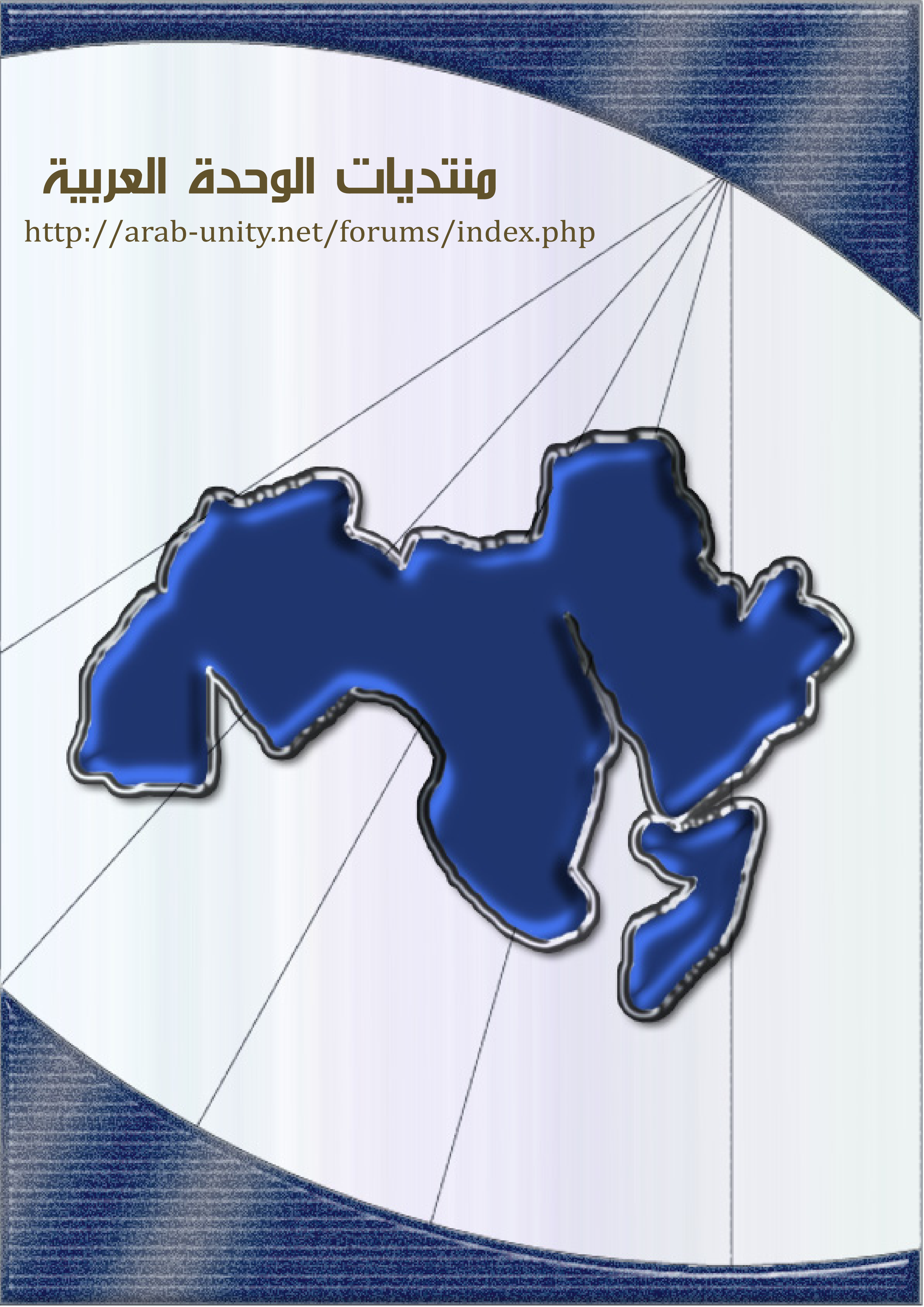

منتديات الوحدة العربية
http://arab-unity.net/forums/index.php

د . عبد الوهاب المسيرى

الفــــــردوس الأرضــــي

دراســـــات وانطباعـــــات عن الحضارة الأمريكية الحديثـــــة

الإهـــــــــداء

ومـــــن غيـــــرك اهديهـــــا هـــــذه الكلمـــــات ؟

مقدمة

الفردوس والترايخ

يعيش الإنسان جزءاً من الطبيعة شأنه فى هذا شأن الكائنات العضوية الأخرى :يولد ويمــوت ، ينطبــق عليه ما ينطبق عليها من قوانين طبيعية حتمية ، أن دخل النار احترق ، وأن القى بنفسه من شاهق دقت عنقه ، وأن تعرض للبرد هلك ،وحينما تفسد خلايا جسمه فهو يتحلل ويتحول إلي تراب تذروه الرياح .

ولكنه إلي جوار هذا يعيش فى بناء مستقل عن الطبيعة من صنع يديه ، هذا البناء هو البناء هو التاريخ ، ولذا فالإنسان لا يخضع لقوانين الطبيعة وحدها وانما يخضع لقوانين التاريخ ايضاً ، وهى قوانين مغايرة لقوانين الطبيعة رغم ارتباطها بها ورغم اعتماد البيئة التاريخية على البيئة الطبيعية . والتــاريخ هــو تــراكم خبــرات الإنسان فى مجابهته الطبيعة ، ولذا فهو يمنح الإنسان من المعرفة والوعى ما يمكنه من الــتحكم فــى الطبيعــة وتوظيفها لصالحه . هذه الازدواجية هي ما يسمى الوجود الانسانى : أن يعيش الانسان داخل جسده "الطبيعــى" يحمل وعيه "التريخي" والجسد والوعى ارتباطها منفصلان الواحد عن الاخر فبينما يؤكد الاول انتمــاءه لعــالم الحيوان ، يؤكد الثاني انتماءه لما هو غير حيواني . وبين هذا الشد والجذب يعيش الانسان ايامــه الارضــية لا مخرج له منهما كفرد او كجماعة .

وهذا الشد والجذب في نظرى هو مصدر جدلية الوجود الانسانى ، فالانسان قد ترك الطبيعــة الدائريــة وسقط في التاريخ وحدوده ولا يمكنه الا تقبل هذا الامر . ولكنه مع هذا قلماً يقنع بما هو قائم وانما يثور ضــدده دائماً ويحلم بما هو افضل خاصة حينما ينظر الى ذاته ، فيرى الامكانات الهائلة داخله وداخل وجوده الانسانى . وحلم الانسان هذا يدفعه للثورة والتمرد . ولقد كان الحلم بالعصر الذهبي دائماً استعارة لحالة من الكمال الانساني نطمح لها ونحاول تشييدها عالمين مسبقاً بأن الكمال ان نصل اليه ، لان الكمال من ســمات الوجــود الانســاني الجدلي ، ولذا كان على الانسان على المستويين والجماعي ان ينشد الخلاص ، ولكنه الخلاص داخل حدود ، إذ كان يفصل دائما بين النسبي والمطلق خارج التاريخ ، ويظل التاريخ هو مجال المحاولــة والخطــأ . والفكــر الثورى يصدر عن رغبة او حلم فى الحياة الافضل ، ولكن الرؤية الثورية الحق تعترف بأهمية التاريخ وحدوده رغم محاولتها توسيع هذه الحدود ، وهى تؤمن بأن الانسان لا يمكنه حل جميع التناقصــات لان حــل بعــض التناقصات ينتج عن تناقصات اخرى اى ان التاريخ لا نهاية له ، ولن نصل بتاتاً الى لحطة السكون التى يتحقق فيها الفردوس الارضى والتى يتنفى فيها الجدل ويتداخل فيها المطلق والنسبى ويصبح التاريخ دائرياً مثل الطبيعة . والرؤية الثورية لا تريد "العودة" الى البراءة الاولى والى التكامل المطلق وانما تحاول الوصول اليهــا جزئيــاً وتدريجياً من خلال حدود التاريخ ودون اى محاولة لتدميره . وقد لخص ماركس لب الموقف بتعريفــه للحريــة على انها معرفة قانون الضرورة ، فالوصول للبراءة الاولى او الحرية المططلقة (الطبيعية) مستحيل باعتبار ان قوانين الضرورة الطبيعية تتحكم فينا . ولكن يظل الاقتراب الجزئى ممكناً عن طريق التحكم النسبي فــي هــذه القوانين بوساطة الوعي والتاريخ الانساني ، ويظل الفردوس الذى لا حدود له حلما وليس كياناً ارضياً متحققــاً ساكناً ازلياً صوفياً . إذ انه لا حرية انسانية خارج القانون والحدود ولكن فى العصر الحــديث فــى الغــرب ، وبانتشار الفلسفات البورجوازية بتقديسها للأشياء بدأ يظهر نوع جديد من الحساسية اسمه "الحساسية الفردوســية" هى فى صميمه نوع من الغيبية العلمية . والغيبية العلمية لا تختلف كثثرا عن الغيبيــة التقليديــة فــى ادعائهــا الاطلاق لنفسها ىفى للجدل وفى محاوزلتها تصفيته . فالغيبية الدينية التقليدية كانت فى جوهرها احتكاراً للحقيقة

المطلقة النهائية ولسبل الخلاص ، ولذا كان على المؤمن ان يتبع هذه الحقيقة حتى يصل الى الفـردوس ، امـا الذين كانوا يقامون هذا الخلاص فقد كانت تفرض عليهم العقيدة فرضاً عن طريق العنـف . والغيبيـة العلميـة الجديدة تدعى لنفسها احتكار الحقيقة المطلقة ، بل انها تنسب لنفسها القردة على تحقيق الفردس فى الارض "الآن وهنا" باشباع كل رغبات البشر ، ذلك ان استسلم الناس لها واسلموا لها ة القيادة ،متبعين اخرين الاساليب العلمية التى لا يعرفها بطبيعة الحال الا العلماء وذلك حتى ينسى الوصول فى اسرع وقت من خلال اقصر طريق الـى الفردوس الموعود .

وهذا من المنطق خطر للغاية ، فهو تورى فى مظهره رجعى فى جوهره ، فهو فى مظهره يحل النجاح العاجل فى الدنيا محل اى نجاح آجل غيبي فى الاخرة ،كما يؤكد اهية السعادة الدنيوية المباشرة . ولكنـه فـى جوهره ينطوى على رفض للمواضعات الاجتماعية وللحدود التاريخية ،كما انه ينطوى علـى رفـض لفكـرة التناقص التى هى عماد ايه رؤية ثورية تاريخية . فالإيمان بالتناقص هو ايمان بحيوية الواقـع وبقـدرة عقـل الانسان الخلاق على التفاعل معه وتخطبه . ويسرى هذا المنطق الفردوسي فى كثير من الـرؤى البورجوازيـة الفلسفية وفى كل الرؤى العلمية الميكانيكية البسيطة التى تفترض ان الانسان كما محضاً لا يختلف عن الكائنـات الطبيعهية الاخرى وانه يعكس بيئته بشكل مباشر وبسيط ، وهى بذلك تنكر ان الانسان كيف مركب فريد او انه يصنع البيئة التاريخية التى تشكل وجدانه ، وانه بذلك يقف على طرف نقيض من الحيوانات التى تعيش فى البيئة الطبيعية خاضعة لقوانينها الحتمية. والحساسية الفردوسية تستند الى ميكانزمات الاقتصاد الصناعى الرأسـمالى الذى يعتمد على فكرة التوازن الميكانيكي الدائم بين العرض والطلب ، ولكن من يسعر من حدتها فـى الوقـت الحالى ظهور المرحلة الاستهلاكية فى الراسمالية التى تفترض وجود انسان بسيط غير مركب عنده كم بسيط من الرغبات يمكن اشباعها ، ولذا بلدا من الحلم بالبراءة الاولى ومحاولة تنفيذها جزئياً فى الواقع ظهـرت الرغبـة المجنونة فى تخقيق الفردوس الارضى الآن وهنا ، وظهرت الدولة الاستهلاكية المنظمة التى تدعى انها ستحقق كل الرغبات وتقضى على كل التوترات ، واختفى مفهوم الممارسة الانسانية الجماعية المسترشدة بحكمه التاريخ الواعية والخاضعة لقوانين المحاولة والخطأ .

واعتقد ان ظهور العالم السوفييتى زخاروف يدل على ان التيار الفردوسي الرجعى ليس بمنأى عن الدولة الاشتراكية ، فهذا العالم السوفييتى يطالب بتخطى الخلافات الايديولوجية وبتوحيد جهود علماء العـالم لاسـتعاد البشر كما لو كان علماء العالم عندهم الصيغة السحرية الفردوسية القادرة على شفاء كل الامراض متناسـين ان العلماء قد يعالجون تفصيلات الوجود المادى (الطبيعى) للانسان ، اما وجوده التاريخي المرتبط بقوانين التـاريخ وبقضية العدالة والتنظيم الاجتماعى فهذا ما لايمكن للعلم معالجته .ان العلم يتعامل مع عالم الطبيعـة وحسـب ، وحينما يتعامل مع الانسان فانه يتعامل معه على انه كائن طبيعى ، اما الانسان ككيان تاريخي مركب فهذا هـو مجال الفلسفة والايديولوجية .

وهذا التصور الفردوسي للانسان ليس حكرا على فلاسفة الراسمالية والتكنولوجيا وانما هو جـزء مـن تصورات المواطنين فى الحضارات الصناعية فى الغرب ، وقد عبر هذا المفهوم عن نفسه فى فكـرة "التقـدم" السريع والدائم نحو الفردوس العلمي المنظم الذي يعيش فيه الانسان كالاطفال فى تناسق تام مع الطبيعة وكأنـه آدم قبل السقوط وقبل ان يكتسب معرفة الخير والشر . فالتقدم العلمي اصبح هدفاً فى حد ذاته بغض النظر عـن العائد المعرفي او الانسانى له وبغض النظر عن مقدار البؤس او السعادة التى يجلبها للبشر .

واصبحت مضاعفة الانتاج امراً مرغوباً فيه دون اى اعتبار لحاجات الانسان الحقيقية (كما ظهرت عبر التاريخ) ودون اى احترام لامكانيات البيئة الطبيعية ، اى ان هدف الانتاج لم يعد اشباع الرغبات الانسانية وانما اصبح هو ذاته الهدف والمثل الاعلى وهذا هو قمة الاغتراب وتدور عجلة المصانع فى سرعة خرافية لتنتج سلعاً واشياء لا يريدها الانسان ولكنها فى دور انها تلوث البيئة بالاحماض والعادم الصناعى فتدمر الانسان من الخارج ، ثم تغرقه فى السلع والتفاصيل وتدمره من الداخل .

وقد كان منطق التقدم وباى ثمن هو المنطق السائد حتى عهد قريب فى العالم بأسره . ولكن يبدو ان مشكلة ان مشكلة البيئة فى المجتمعات الصناعية قد بدأ فى التفاقم ، ولذا والاول مرة فى تاريخ التقدم فى الغرب يدخل عنصر كيفى عليها وبدأ المفكرون بل والمواطنون العاديون يتحدثون عن "تكاليف" التقدم وعن تلوث البيئة ، وهل مجرد "انتاج" سلعة ما هو "تقدم" ، وام ان التقدم والتخلف يقاسان بقاييس تقع خارج نطاق الاشياء والكم وانه لا يمك استخلاص هذه المقاييس الا من ظاهرة الانسان نفسه ومن بيئته التاريخية ذاتها ؟ واذا كان الحديث عن تلوث البيئة (الطبيعة الخارجية) اصبح امراً شائعاً فى الغرب ، فان الحديث عن تدمير الانسان (الطبيعة البشرية) سيصبح هو الآخر امراً مطروحاً عما قريب لا محاولة .

وفى اثناء اقامتي فى الولايات المتحدة (١٩٦٣ــ ١٩٦٩ ثم ١٩٧١)لاحظت ان هذا التيار الفردوسي المعادي للتاريخ والايديولوجيا الملتزم بفكرة التقدم العلمي باى ثمن ، هو البناء الكامن وراء كثير من الافكار سواء بين اعضاء اليمن او اليسار .وقد وجدت انه قد يكون من المقيد ان اسجل انطباعاتي واكتب دراساتي منطلقا من ايمانى بالانسان على انه كائن طبيعى ــ تاريخي : كائن يحلم دائماً بالفردوس لكنه يعيش فى التاريخ . وقد لاحظت ان الانسان فى الولايات المتحدة يهرب من التاريخ ليعيش فى الفردوس ، ولكن ــ هذا هو ما خبرته ــ من يهرب من التاريخ ليعيش فى الفردوس ينتهى به الامر الى الحجم ، فالانسان الذى يهرب من معرفة قانون الضرورة والذى يرفض فكرة الحدود التاريخية ليمرح فى فردوس اللاحدود سينتهى به الامر فى عالم الصدفة العبثى الذى لا يحكمه قانون ــ والجحيم هو الصدفة والعبث ــ تماما مثل انسان دوسو الفرح يتحول بالضرورة الى انسان داروين الذى تأكله الذئاب من الحيوانات الطبيعية او من البشر الطبيعيين . ان الانسان وجود جدلى : جسد وروح(اعمل لاخرتك (وروحك) كأنك تموت غدا" . والمجتمعات الاستهلاكية التى تظن انها قادرة على اشباع جميع رغبات الانسان والتى تعرف هذه الرغبات بشكل كمى ، مسقطة احتياجاته الروحية من الاعتبار ، اقول هذه المجتمعات تتجاهل ازدواجية الانسان وتسبب الؤس للبشر .

وقد كتبت هذه الدراسات وسجلت هذه الانطباعات حتى انقل تجربتى للقارئ العربى ، ويلاحظ اننى ركزت بعض الشئ على تشابه التجربة الاسرئيلية ، كما تعرضت لتاريخ ووجود الاقلية اليهودية فى الولايات المتحدة . وقد شرحت فى عدة دراسات فى هذا الكتاب اسباب تركيزى على هذا الموضوع لكننى يمكننى ان اضيف هنا ان الديانة حلولية تخلط بين المطلق والنسبى ولا تركز على فكرة البعث عى عالم آخر ، وتزخر بأفكار مثل عودة الماشيح واخرة الايام ، وهى افكار تؤكد فكرة الفردوس الارضى ، اقول ان اليهودية بهذا تنمى فى تابعتها هذه الحساسية وتجلعهم مؤهلين اكثر من غيرهم لان يتقبلوا قيم المجتمعات الاستهلاكية . وانا لم اعرض لهذا الجانب من بناء اليهودية الفكرى فى الدراسة الحالية لان هذا ليس مجاله ، واكتفيت بعرض نتائجه . (ويمكن للقارئ الذى الالمام بالموضوع ان يعود لموسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية) .

زارجو الا يفهم من دراستى اننى القيمة الانسانية والايجابية للحضارة الغربية من يعترف بفضل هذه الحضارة على العالم ككل وعلى انا كفرد .

ولكننى اجتزأت خاصية سلبية اساسية فى الحضارة الامريكية (والحضارة الاستهلاكية عامة) وهى معاداتها للتاريخ . وهذا الاجتزاء والتركيز على عنصر واحد دون سواه ضرورة دراسية وتكتيك منهجى مشروع ، خاصة إذا كان هذا العنصر له دلالة ومركزية بالنسبة للظاهرة ذاتها وإذا كان له دلالة عميق بالنسبة فى الوقت ذاته .

ولقد قمت بمقارنة هذا العنصر فى الحضارة الامريكية بنقيضة العربية لا لافاضل بين الحضارتين وإنما لا وضح للقارئ ما اعنى ، وحتى تترسخ فى وجدانه نقط الخلاف الرئيسية بين نمطنا الحضارى والنمظ الحضارى فى الغرب.ولعل احساسنا بالاختلاف الذى قد يشعرنا بشئ من التفوق الانسانى لا بد وان يشعرنا أيضاً بكثير من النقص فى حضارتنا التى يغلها التاريخ وتقيدها التقاليد ، والتى هى احوج ما تكون للحلم بالفردوس وبالبراءة الاولى حتى يشعر الانسان بجسده بعض الشيء ويشعبنفسه ككيان منفصل . فاذا كانت الحضارة الاميكية تحول الفردالى الى جزيرة" فردوسية منغلقة على ذاتها ، الحضارة العربية تحوله الى قطرة "تاريخية" فى المجتمع ليس لها حدود على الاطلاق . وهذا مايمكن ان نتعلمه من امريكا شريطة الا نفقد هويتنا .

وارجو الا يشتم من هذا الكتاب اننى معاد للعلم والتكنولوجيا ، فأنا لست بهذه السذاجة ، وأنا من المؤمنين انه لا يمكن ان تقوم قائمة لاى حضارة عربية معاصرة الا بأخذ مقولة العلم والتكنولوجيا فى الاعتبار ، واى بناء فكرى يتجاهل هذا العنصر هو بناء فى سذاجة النسق الدينى التقليدى الذى يحاول ان يتجاهل الجانب الطبيعى للانسان ، وهو ايضا فى سذاجة النسق العلى التجريبى الذى يحاول ان يتجاهل الجانب التاريخى او الروحى للبشر . ولذلك فانا ارى انه لابد من العلم ، ولكن فى الوقت ذاته لابد وان يقف العلى عند حدوده لا يدعى لنفسه ما لا يملك . فزخاروف غير قادر على حل مشاكل مواجهة العالم الثالث للامبريالية عن طريق اختراع صنف جديد من الصابون او عن طريق ارسال انسان الى القمر او عن طريق التوصل لاكثر المعادلات الرياضية تعقدا ، اى اننا يجب الا نفاضل بين العقل والبطن بل الا نقارن بينهما فهما ينتميان الى مجالين منفصلين رغم اتصالهما.

وقد يقال ان مثل هذه الدعوة فى "المرحلة الراهنة" فيها خطورة لاننا فى مجتمع متخلف احوج مايكون للعلم والتكنولوجيا وفى هذا المنطق شيء من الصدق ، ولكن مع هذا لابد وان نستفيد من اخطاء الاخرين ، فمن يرتكب خطأ ما فانه بطل مأسوى ، اما من يرتكب أخطاء الآخرين فهو مهرج . لا داعى اذن للحديث عن العلم بشكل مجرد كما لو كان هو الذى سيحل مشاكلنا ، لانه لن يفعل ، وانما الذى سيحلها العثور على الصيغة الملائمة لنا ، والتى عن طريقها سندخل العلم والتكنولوجيا على العالم العربى بتراثه التاريخ الانسانى الرائع ، دون ان نضحى بهذا التاريخ ونلقى به فى البحر كما يطلب منا البعض .

بهذه الأفكار عدت من الولايات المتحدة وكتبت هذه الانطباعات وادراسات* .

---

* نشرت الثلاثة اجزاء الاولى من البابين الاول والثانى فى جريدة الاهرام فى صيف ١٩٧٢ ونشر الجزء ارابع من الباب الثانى فى مجلة الطليعة المصرية . اما الجزء الثانى من الباب الثالث فقد نشر بالانجلزية فى كتاب

Malcolm , The Man and His Work (New York,ed. Callier 1972) .

الباب الاول

الرجماتية الامريكية والبرجماتية التلمودية

١- صهيون الجديدة فى الولايات المتحدة واسرائيل

لا يملك الدارس للوجدان الامريكى واصهيونى ال ان يلاحظ التشابه والتطابق بينهما على الرغم مـــن ان الحضر ة الامريكية لا يزيد عمرها عن بضعة قرون بينما تتباهى الحضارة اليهودية الاسرائيلية بتاريخ قديم قدم الانسان . ولعل اهم صفات التشابه بين الوجدانين ان يكلاهما يرفض التاريخ بعناد واصرار ، او علـــى الاقـــل يحوله الى اسطورة متناهية فى البساطة. وقد بدأ التاريخ الامريكى حينما استقل البيوريتانيون سفنهم وهـــاجروا من اوروبا الى العالم الجديد ار ارض الميعاد هربا مـــن المشـــاكل التـــى اثارهـــا " التـــاريخ الاوروبـــى " . والبيوريتانيون او المتطهرون هم لفيف من البرتستانت المتطرفين الذين وجدوا انه من العسير عليهم البقاء داخل الكنيسة النكليزيه لانها – حسب تصورهم – لم تبتعد بما فيه الكفاية عن عن النمط الكاثوليكى فى ىالعبادة بمـــا فيه من طقوس وتماثيل وزخاف ، وطالبوا

" بتطهير" العبادة المسيحية من كل هذه العناصر الداخلية التى لم يأت لها ذكر فى العهد القديم أو الجديد . ان طالعودة" للبساطة الاولى كانت الهدف الاسمى للمتطهرين الذين حاولوا تشـــييد مـــدينتهم الفاضضـــلة (_او صهيون الجديده كما كانوا يسمونها) حسب المثل والقواعد التى وضعها وطبقها المسيحيون الاول (ولـــم لا ، اليسوا هم النخبة الصالحة التى ورثت رؤى العهد القديم والجديـــد ؟) . ولـــذا يمكننـــا ان القـــول ان الوجـــدان البيوريتانى يرفض التاريخ المسيحى كله ، بل يرفض لية رؤية تاريخية على الاطلاق لان العـــودة " للبســـاطة الاولى" ٠(وهى نقطة سكون ميتافيزيقية غير متطورة او متغيرة) تصبح واجب كل فرد فى كل زمان ومكان

ولا يزال اثر هذا التصور البيوريتانى واضحا على الوجدان الامريكى ، فالرفض الكامل للتاريخ يظهـــر بصورة متكررة فى الاعمال الادبية والفنية الامريكية مثل قصائد اميلى ديكنسون واشعار والت ويتمان شـــاعر الديمقراطية الامريكية فى القرن التاسع عشر الذى كان يرى ان كل تاريخ العالم لم يكن سوى هراء ووهم وانه كان مجر تمهيد لظهور امريكا ، وان مآسى التاريخ تكتسب معنى وبعدا جديدا وتصبح ذات دلالة عندما حينمـــا يصل تاريخ البشرية الى "نهايته" الاميكية السعيدة ، التى هى فى الوقت ذاتـــه نقطـــة البدايـــه الحقيقيـــة للحيـــاة الفردوسية الامريكية ، ولهذا اليبب يطلب ويتمان فى شعره من المواطنين الاميكين الجدد ان يلقـــوا مـــن علـــى كاهلهم عبء الحضارة الاوروبية ليبدأوا من جديد من نقطة الصفر، فى الارض العذاء الجديدة ، وفى الفردوس الاضى الامريكى .

وهذا التصور الفردوسى لامريكا ليس قاصرا على الادباء والشعراء وحدهم ، بل انه فكره لها فعاليتها فى الحياة اليوميه الامريكية ، ففى برامج التلفيزيون الامريكى كثيرا ما نجدان الشخصـــيات المركبـــة الشـــريرة تحمل اسما اوروبيا واضحا مثل فابريزى او بلجارد اما الشخصيات البريئة الطيبة فهى عادة تحمل اسما انجلـــو ساكسونيا مثل جون او سميث (وحبذا لو كان جون سميث) والرفض البيوريتاني الامريكي للتـــاريخ الاوربـــي يقابله الرفض الصهيوني الاسرائيلي للتاريخ اليهودى فى الدياسبورا (الشتات) فالصـــهاينة يـــرون أن الوجـــود اليهودى فى اى حضارة غير يهودية ظاهرة شاذة وعلامة على المرض الروحى ، ولذلك فهم ايضـــا يعـــودون "للبساطة الاولى" ايام كان اليهود يعيشون ككيان قومى مستقل فريد لم تدخل عليه الشوائب (التاريخيـــة) غيـــر اليهودية المختلفة . والصهاينة يرون ان التاريخ اليهودى يؤدى الى النهاية الاسرائيلية السعيدة ، وفى الفـــردوس اليهودي الجديد يحمل كل المواطنين اسماء عبراية لها رنين خاص (على عكس يهود الحركة الاصلاحية فـــى

اوروبا الذين تخلوا عن اسمائهم العبرانية وسموا انفسهم باسماء اوروبية لا تميزهم عن الشعوب التي ينتمون اليها) . ان اسطورة العالم الجديد الذى يتحلى بالبساطة والبراءة والذى هو اقرب الى الفردوس الارضى تسيطر على الوجدانين والصهيوني .

ولعل هذا يفسر نظرة كثير من الصهاينة والاسرائيليين الى دولة اسرائيل على انها كيان ميتافيزيقي يحقق نبؤات العهد القديم ، وبالتالى فهى لا علاقة لها بالشرق الاوسط او الادني او الاقصى ، وكما قال احد محررى النيويورك تايمز ان على الانسان ان يستوعب سفر اشعياً استيعاباً كاملاً ليفهم سياسة اسرائيل الخارجية ! فمفهوم "ارتس اسرائيل" التوسعى او "اسرائيل العظمى" التى تضم الارض الواقعة بين نهر مصر والفرات هو مفهوم دينى (او قوس اذا شئت) لا علاقة له بالزمان او المكان .

ولم يختلف فهم البيوريتان لمدينتهم الفاضلة كثيراً عن فهم الصهاينة لاسرائيل فهم كانوا مقتنعين تمام الاقتناع انما هاجروا من اوربا للعالم الجديد لينشئوا "مدينة على التل" تنظر اليها كل الامم وتحاكى افعالها وبذا يعم الخير ويأتى الخلاص .

وكان المفهوم البيوريتاني للتاريخ مفهوماً دينياً فى كل شئ علامة مرسلة من الله يستشهد بها على شئ ما ، هو الحال مع الاسرائيليين نجد ان البيوريتانيين استخدموا هذه"العلامات" الربانية كل اعمالهم العدوانية من ابادة للهنود الحمر واحتلال لاراضي الغير . وقد استمر هذا التزاوج بين الاحلام الدينية والاحلام القومية التوسعية حتى القرن التاسع عشر ، فوالت ويتمان كان يؤمن بالفتوحات التوسعية الامريكية (فى المكسيك وغيرها) بنفس ايمان المسيحى "بالسر الالهى" على حد قوله ، كما كان يحلم بامريكا العظمى التى تمتد من كندا الى كوبا ومن القطب الى خط الاستواء ، وكان يسمى حلمه التوسعى هذا بانه "رؤيا عذبة" ، اما اوسوليفان المفكر الامريكي التوسعى فقد كان يسمى هذا التوسع بانه "القدر الجلى" ، وهو قدر لانه مكتوب على الامريكيين ذوى الرسالة الخالدة وهو جلى لانه واضح للعيان ولا جدل فيه . بل انه حتى الان لا تعدم ان تجد من يستخدم هذه النغمة الدينية التبريرية مثل الكاردينال سبلمان الذى كان يسمى الجنود الامريكيين فى فيتنام "جنود المسيح" ، ومثل الجنرال الامريكى الذى دمر قرية فيتنامية "كي ينقذها" . ان الجنرال الامريكي مثل الجنرال الاسرائيلى عنده احساس بانه صاحب رسالة خاصة وانه قد "اختير" لتنفيذها ، ولذلك فهو يقوم بالتخريب والتدمير والفتح والغزو والنهب فى منتهى البراءة ودون ان يهتز له جفن .

وعقلية الريادة تسطير على كل من الصهاينة والامريكيين ، فالبيوريتانيون "اكتشفوا" امريكا ثم انتشروا فيها عن طريق انشاء مستعمرات ذات طابع زراعي عسكرى . والمستوطون الصهاينة هم الاخرون " اكتشفوا " فلسطين واحتلوها بنفس الطريقة ، وعقلية الرائد عقلية عملية تفضل الفعل على الفكر ، والنتائج العملية على الاعتبارات الخلقية ، انها عقلية الكاوبوى (وهو شخصية تعشقها الجماهير الاسرائيلية التى تدمن الافلام السينمائية من جميع الانواع) : الكاوبوى الذى ينتصر لانه مسدسه فى الوقت المناسب وقبل خصمه بثوان قليلة ، ثم يمسح فوهة مسدسه وهو يقبل عشيقته حتى لا يضع وقته فيما لا يفيد ، وقمة الفعل هو دائماً ذبح الخصم " انا اذبح (خصوصى) لا كروسى يهودى او فرنسى يهودى بل كيهودى يهودى ، هذا هو مناى" ، (كما يقول احد الابطال القصص الاسرائيلية)

ولعل نقطة التشابه الاسياسية ن الوجدانين الامريكي والصهيوني الاسرائيلي هــو العنــف العنصــرى ، فرفض التاريخ نتج عنه تعام عن الواقع وتجاهل لكل تفاصيله ، ولذلك وقــع البيوريتــانيون والصـــهاينة فـــى تناقصات رؤياهم المثالية القبيحة ، رؤيا عالم جديد برئ بسيط لا يمكن ان يشيد الا عن طريق العنف والابـــادة " ابادة الهنود الحمر والفلسطينين " ، الفردوس والجحيم فى آن واحد . ولعل هذه المقطوعة الوصفية مفتاح لفهــم نقط التلاقي بين الوجدانين الصهيوني والامريكي . "كان الرجال يمسكون بالمحراث باحــدى ايــديهم والبندقيــة بالاخرى ، وكانوا يعدون من المحظوظين ان لم يتلف عدوهم المتوحش نتاج عملهم الشاق اما فى الحقول او فى مخزن الغلال " .

فى هذه المقطوعة تختلط الصور الفردوسية وصور الاخصاب بالصــور الجهنميــة وصــور الــدمار ، فالرجال يحرثون الحقول وينقلون نتاج عملهم الى مخازن الغلال ، ولكن عدوهم المتوحش يقف لهم بالمرصـــاد كانه الثعبان فى الجنة يدمر الثمار والحصاد لذا يمتزج المحراث بالسيف والزراعة بــالحرب ، وهــذا يــذكرنا بالكيبوتس وبؤسسات اسرائيل الزراعية العسكرية . ولكن المقطوعة السابقة ليست وصفاً للكيبــوتس بــل هـــى مقتبسة من القصة المعنونة "دفن روجرملفن " للكاتب الامريكي ناثانيل هورثون (من كتاب القرن التاسع عشـــر الامريكيين) وهى قصة تعالج حياة المستوطنين الامريكيين الاول . وليس من قبيل المصادفة ان شعار "ارض بلا شعب وشعب بلا ارض " قد تبناه كل من البيوريتانيين والصهاينة ، ولــيس مــن قبيــل المصـــادفة. ايضـــاً ان المجتمعين الاسرائيلي والامريكي من اكثر المجتمعات عنصرية ان كان من ناحية الواقع الاقتصـــادى او البنيـــة الحضاري . وقد يكون مما له دلالته وطرافته ، ان مؤسسى الجمهورية الامريكية بعد اعلان الاستقلال قد فكروا فى جعل اللغة العبرية لغة الدولة الرسمية باعتبار ان الجمهورية الوليدة هى صهيون الجديدة ، ولكن الاعتبارات العملية جعلتهم يعدلون عن تهيؤاتهم .

وقد يقول البعض ان مثل هذه المقارنة قد تكو طريفة ولكنها لا يمكن ان تؤخذ على محمل الجــد وذلـــك بسبب الفروق الاقتصادية والجغرافية الواضحة بين البلدين ، وفى هذا الشئ مـــن الصـــدق خاصـــة اذا حاولنـــا الوصول الى نتائج تفصيلية استنادا الى هذا التشابه الذى لا حظناه بين المجنمعين . ولكن فى الوقت ذات يجـــب الا نهمل الدروس العامة التى العامة التى يمكن ان نستخلصها من دراستنا لتطور الحضارة الامريكيـــة ، فمـــن المعروف ان هذه الحضارة لا تزال متاثرة الى حد ما بالاوهام والاساطير والرؤى البيوريتانية على الرغم مـــن مرور عدة قرون وعلى الرغم من التحولات العديدة التى طرات على بيئة المجتمع الاقتصادية . وهناك ما يشبه الاجماع بين مؤرخى الحضارة الامريكية ، ومن بينهم عميدهم بيرى ميللر ، على ان دراسة الحضارة الامريكية دون استيعاب الوجدان البيوريتانى امر غير مجد ولا طائل من ورائه لانه لا يمكن الاحاطة كاملة بجوهر هـــذه الحضارة وروحها دون الرجوع للاطار الاول الذى صاغه البيوريتانيون . اذا كان الامر كذلك يمكننا ان نخلص الى ان الافكار الاسطورية الزائفة لها تاثير عميق على الوجدان الانسانى وعلى سلوك البشر ، وان هذه الافكار رغم زيفها قد تعمر طويلاً وقد تاخذ اشكالاً عديدة مما يدعونا الى عدم التفاؤل بخصوص الجماهير الاســـرائيلية ضحية الاساطير الصهيونية ، فهى ستبقى اسيرة هذه الاساطير والرؤى بعض الوقت . ولذا يجب الا نتوقع انـــة ازمة اقتصادية او اثنتين او ان انتصارا فدائياً او اثنين سيزلزلان كيانها ، بل ينبغى علينا ان نتوقع خوض حرب طويلة ومريرة عسكرية او حضارية وذلك قبل ان يتحرر الانسان الاسرائيلي من اوهامه الصهيونية الطوباويـــة وقبل ان يرضى بان يعيش فى دولة علمانية غير عنصرية .

وعلى المستوى الاعلامى يجب ان نضع فى اعتبارنا انه من اليسير على الشعب الامريكي فهم العقلية الاسرائيلية والتعاطف مع الشعب الاسرائيلي وقيمة اللااخلاقية من عنصرية وعنف نظرا للتشابه بين وجدان الشعبين . وهذه النتيجة ليست فيها اية دعوة للياس ، وانما هى مجرد على عنصر موجود بالفعل ، ان لم نعترف به هزمنا وافشل خططنا اما اعترافنا به فيساعدنا على معرفة حدود ومدى اى حملة اعلامية نقوم بها . ان الشعب الامريكي وقادته الذين تسطير عليهم عقلية الرائد والكابوى لا يفهمون سوى منطق القوة ولا يحسون الا بالنتائج العملية المباشرة ، ولذلك فالاعلام الذى لا تسنده قوة او وضع قائم بالفعل ما هو الا عودة للاخلاق الحميدة لا ينصت لها الا ذوو النوايا الطيبة ، وحتى هؤلاء سينسونها وينسوننا بعد دقائق .

اما انابيب البترول التى تحمل الارباح الطائلة الارض الميعاد الامريكية فهى لا تنسى فى عالم الحق والبترول والفضيلة .

٢ــ فابريكة الانسان الجديد

من نقط التشابه الرئيسية بين المجتمعين الاسرائيلي والامريكي ان كليهما مجتمع استيطانى يتكون من المهاجرين الذين عليهم ان يطرحوا على انفسهم هويتهم القديم ليكتسبوا هوية قومية جديدة بمجدر وصولهم الى نيويورك او حيفاً . واكتساب الهوية الجديدة هو مشكلة المشاكل بالنسبة لكل المجتمعات الاستيطانية الرافضة للتاريخ وللتراث والتى تفبرك " تراثاً جديداً " يدور حول اسطورة بسيطة يؤمن بها "الانسان الجديد" . فامريكا استحدثت اسطورة "آدم الجديد الديمقراطي" الذى ياتى الى الارض او الجنة العذراء ليقيم فيها ويستلهم كل ما فى التراث العالمى من ايجابيات وينفتح على كل الحضارات . والصهاينة فبركوا اسطورة " اليهودى الخالص" المتفتح على الحضارة اليهودية الخالصة والذى يهاجر الى ارض الميعاد اليهودية ليحارب فى جيش يهودى ويزرع فى حقل يهودى ويقرا فى كتاب يهودى (وربما يحب على الطريقة اليهودية ، ويقتل بالطريقة نفسها) .

ولكن هل نجحت الفابريكة الحضارية فى كل من اسرائيل وامريكيا ؟ ومرة اخرى يمكننا ان نستخلص من دراستنا للوضع الحضارى فى امريكا الدروس والعبر التى قد تهدى خطانا فى دراستنا للمجتمع الاسرائيلى . ونظرة واحدة على المشهد الامريكي وعلى اسطورة بوتقة الصهر الحضارية ، حيث ينصهر المهاجرون الجدد فى كل امريكي واحد جديد ، نظرة واحدة تبين ان البوتقة لم تحقق المتوقع منها .

وقد ظلت هذه الاسطورة مسيطرة على الوجدان الامريكي حتى غهد قريب طالما كانت السيادة "للوسيب" (اختصار وايب انجلو ساكسون بروتستانت" اى بروتستانتى ابيض يتحدر من اصل انجلو ــ ساكسونى) ، ولكن حينما بدات الاقليات الاخرى فى التململ انهارت الاسطورة كلية . ويمكن القول ان الاسطورة لم تكن ابدا حقيقة اقتصادية اجتماعية ، وانما كانت مفهوما له فعالية عاطفية قوية ، ولكن حتى هذه الفعالية العاطفية قد تلاشت الى حد كبير فى الأونة الاخيرة . وقد بدات الاسطورة فى التصدع العلنى بظهور دولة اسرائيل زنحسار التيار اليهودى الاصلاحى فى امريكا ، فحينما بدات الحركة الصهيونية فى اواخر القرن التاسع عشر لاقت مناواة عنيقة من اليهود الامريكيين الذين كانت تسيطر عليهم آنئذ اليهودية الاصلاحية المطالبة بالفصل بين القومية والدين ، وبتحويل الولاء اليهودى الى ولاء دينى خالص . ولكن بازدياد الهجرة من شرق اوربا (وجماهير شرق اوربا اليهودية كانت ذات اصول بورجوازية صغيرة ونشات فى مجتمعات متخلفة حضاريا كما كانت تسيطر عليه تيارات دينية رجعية محافظة) . بازياد هذه الهجرة قويت شوكة الصهيونية واشتد عودها ووجدت مرتعا

خصبا بين صفوف تلك الجماهير ، ومن ثم بدات محاصرتها للتيار الاصلاحى الذى انتهى به الامر الـى تاييد ظهور اسرائيل تاييدا فاترا فى بداية الامر ثم تاييدا مهووسا محموما على الطريقة الصهيونية التقليدية التى لا تعرف من الالوان الا الابيض والاسود ولا ترى اى ظلال او ابعاد خفية .

وبعد سقوط الاقلية اليهودية الامريكية فى قبضة الفكر الصهيوني عزف اليهود الامريكيون نغمة جديدة تدور حول "فرادة الشخصية اليهودية" و "استقلالها" وحول وحدة الوجود اليهودى . واتضح هذا فى التعليم اليهودى فاصبحت المناهج لدراسية تؤكد عزلة اليهود واضطهادهم وتبين عنصر الاستمرار فى التاريخ اليهودى مما يحول الوجود اليهودى فى "الدياسبورا" وجود هامشى، كما بينت هذه المناهج اهمية "حلم العودة" باعتباره القوة الدافعة وراء التاريخ اليهودى كله وباعتبار اسرائيل تتوجا لهذا التاريخ ، اى ان التعليم اليهودى كان يحاول تقوية الوعى اليهودى على حساب الوعى الامريكي ،بل ان اذدواج الولاء نفسه وجد من يدافع عنه بين الصهاينه على انه مسأله طبيعيه ومنطقيه للغايه(وبالطبع كان هناك اصوات يهوديه معارضه مثل الناقد الأدبى ليونيل تربلنج والعالم النفسى الشهير اريك فروم والحاخام المر برجر ، ولكنها اصوات خافته غير مسموعه ، تماما مثل اصوات المفكرين اليهود المنتمين لليسار الجديد والذين يعارضون الوجود الاسرائيلى).

حينما ظهرت حركات السود التحررية مع اسطورة البوتقة ، فطالب الزنوج بالمساواة الاقتصادية والسياسية كما حاولوا الاندماج فى المجتمع الأمريكى لان التصور السائد آنذاك أنه "مجرد انسان جلده اسود ، لا يختلف فى وعيه ولا وجدنته عن " الواسب" ولكن فى منتف الستينات اعلنت جماعة سنك السوداء برنامجا ثوريا جديد يرفض الانتماء كممثل أعلى ويطالب بالمساواة الاقتصادية والنفصال الحضارى والروحى فى نفس الوقت ، وظهرت عبارات وشعارات جديدة مثل" القوة السوداء " أو " السواد الجميل " واختفى مصطلح نجرو (زنجى) ليحل محله مصطلحات جديدة مثل الافروامريكان (الافريقى –المريكى) لـو مجـرد بـلاك (اسـود) ، وهى مصطلحات تؤكد اذدواج الولاء ، وان انتماء السود الحضارى ليس اننتماءاميكيا خالصا . واخذت الامر فى التطور واعيدت كتابة تاريخ امريكا من وجهة نظر "سوداء" وشاهدت الولايات المتحدة حركة لاحياء التراث الفكرى والادبى لامريكا السوداء ولاكتشاف ابطال سود من المناهضين للإندماج . وهذا الضرب من التفكير ينحو منحى "قوميا" يذكرنا بالاتجاه الصهيونى ، فهو يدور حول فكة ان الرجل الاسود رجل فريد وله وعى مستقل كما انه يستند الى الايمان بوحدة الوجود الافريقى. ولكن يجب ان تتذكر ان "عودة" الافروامیكان عودة روحية وحسب لانه يتقبل وجوده كعضوا فى المجتمع الامريكى ويحاول ان ينمى ذاه الفريدة داخل هذا المجتمع وليس خارجه ، على عكس التصور الصهيونى الذى يرفض اى وجود يهودى خارج ارض الميعاد .

ولان هذا التفكير الاسود ينحو منحى قوميا ، كان ولابد وان يصطدم بالفكر الصهيونى فى اللايات المتحدة، فالصهاينه يرون ان الفرادة حكر على اليهود دون الاغيار ، وان الاضطهاد الدائم والحقيقى موجه نحو اليهود وحدهم ، هذا على الرغم من النجاح العلمى والحضارى المذهل الذى احرزته الاقلية اليهوديهة فى الولايات المتحدة . وهذا يفسر لماذا تؤيد المنظمات الصهيونية واليهودية الجماعات الاندماجية بين السود، ولماذا تمدها بالمعنة المالية وتحجبها عن الجماعات الثورية الامر الذى يسعر العداوة بين اليهود والثوريين السود . اضف الى هذا ان مالكى المحلات والنازل فى الاحياء السوداء عادة ما يكونون من اليهود لان معظم هذه الاحياء كانت فى الماضى "جيتو" يهودى للمهاجرين اليهود الفقراء الذين فتح الله عليهم فى ارض الميعاد

الامريكية الحقيقية ، فانتقلوا خارج الجيتو وان ظلوا محتفظين بمحالهم التجارية ومنازلهم الخربة البالية التى يسأجرها السود نظير اجور عالية لانه ليس من السهل عليهم السكنى فى اى مكان آخر. ومما يساعد على تعميق هذا الاتجاه ان رأس الماليهودى بتراثه الجيتوى الطويل ، واليهود المعاصرين بعقليتهم وخبرتهم الجيتوية ينجذبون الى الاعمال والاستثمارات الهامشية فى المجتمع ، وهى على ايحال الاعمال والاستثمارات الوحيدة المتاحة امامهم فى مجنمح مستقر ومتكامل اقتصاديا مثل المجتمع الامريكى .

لكل هذه الاسباب اصبح اليهودى هو العدو المباشر المئى للجماهير السوءء المضطهدة فاضطرمت حدة الصراع بين اهم اقليتين عنصريتين فى الولايات المتحدة وزاد من وعيها بذاتها القومية ، الامر الذى نتج عنه التصدع الكامللبوتقة اياها ومن هنا سرى الوعى العرقى بين الاقليات القومية الاخرى سريان النار فى الهشيم فتجد الان جماعات للدفاع عن حقوق الايطاليين (ويرأس الممثل فرانك سناترا احداها) مهمتها الدفاع عن الاميكيين المتحدرين من اصل ايطالى ومنع اى محاولة للتشير بهم كجماعة قومية او تشويه صورتهم ، وقد نجحت بالفعل هذه الجماعات فى ان تضع حدا لتصوير المواطن الامريكى – الايطالى فى التلفزيون الامريكى على انه شخص تافه لا ضمير له يهتم بمظهره اكثر من اللازم ، وينتمى عادة الى تنظيم المافيا الاجرامى . والايرلنديون هم الآخرون بدأوا فى تجيع قواهم لتأييد جيش التحري الايرلندى ، وقد قابلت احد زملائى السابقين فى الجامعة فوجدته متحمسا بشكل مضحك لهذا الجيش يرسل بكل مدخراته له ، ويدرس التراث الايرند واللغة الايرلندية ٠الجاليك) بحماس يذكرنى بحماسالصهاينه تججاه كل ما هو يهودى ، ويتحدث باحتقار شديد عن الكتاب والشعراء الاميكيين – اقول بشكل مضحك لان صديقى هذا لم يكن عنده اى اهتمام سياسى منذ ثلاث سنوات ، كما انه لم يكن حتى يفكر فى زيارة ارض ميعاده الايرلندية .

حينما ذهبت الى نيويورك عام ١٩٧١ لم اقابل بشرا او افرادا ، كما لم اجد بوتقة او اتونا بل قابلت جماعات قومية متنافرة او مواطنين حددت هويتهم بشكل قومى ضيق– فهم اما سود او يهود او ايرلنديون، لقد قابلت افراد يبذلون قصارى جهدهم فى تحديد ذاتهم خارج الدائرة الحضارية الامريكية ، ويرفضون فككرة بوتقة الصهرالتى يجلس يها الواسب وحيدا ولكنه مه ذلك يمسك كل حبال الاقتصاد الامريكى يصفر فى سعادة واضحة على الرغم من احزانه القومية والحضارية ، فهو لا يزال يمتلك كل الاحتكارات الامريكية الاساسية كما انه لا يزال المورد الرئيسى المعتمد لكل رؤساء الجمهورية .

وقد شاهدت عددا من الافلام الامريكية الجديدة التى تلاحظ فيها هذه العنصرية الواضحه والعتى تؤكد انتماء شخصياتها القومى، فهناك بالطبع الافلام التى تؤكد فرادة اليهود مثل فيلم "عازف على السطوح" الذى يعالج الدائرتين : دائرة اليهود الصغيرة وهى هذه المرة جيتو ريفى فى روسيا تحيطها الدائرة الواسعة ، دائرة الاغيار . واليهود داخل دائرتهم يعزفون الموسيقى ويتزوجون ويتناسلون فى سعادة واضحة وان كان وجودهم التناسق مجودا مهددا بالانهيار ، ومن هنا كان العازف على السطوح هورمز هذا الوجود . وحينما تظهر اول شخصية غير يهودية فى صورة جندى روسى، يقول نكتة معادية للسامية ، فاننا نعرف على التو لم لا يمكن ان يكتب للوجود اليهودى الثبات والدوام . يرقص اليهود رقصات رومانتيكية انسانية ، اما الرقصات الروسية الشعبية فهى تبدو فى هذا الفيلم وكأنها احدى رقصات الحرب ، واليهود يقفون وسط دائرة الراقصين لا حول لهم ولا قوة ، حتى قديسوا الكنسية الروسية ، ذوو الوجوه البيزنطية النحيفة المستطيلة ، هم ايضا عيونهم قاسية لا

رحمة فيها لليهود . ولكن الفيلم (عن عمد او عنغير عمد) يبين عنصرية اليهود الراخة الجذور ، فبطل الفيلم بائع اللبن اليهودى يغفر لاثنتين من بناته تزوجت احداهما من بخياط يهودى فقيرمفضلة اياه على خطيبهـا الغنـى ، وتزوجت الاخرى بثورى يهودى بدون علم ابيها ، يغفر لهما الاب لان الزوج فى كلتا الحالتين يهودى يتحـرك داخل الدائرة الصغيرة ، اما الثالثة فلا غفران لها ولا صفح لانها تزوجت من مسيحى . ورغم ان هذا المسيحى يعلن عن استنكاره للعنف الموجه ضد اليهود الا ان هذا لا يغير من مقف الاب فى شىء ، فالانتقال من الـدائرة الصغيرة الى الدائرة الكبيرة هو الموت بعينه(وبالفعل تقوم بعض العائلات اليهودية بمراسم الدفن لبناتها اللائـى يتزوجن من فرد غير يهودى) .

ومن الافلام العنصرية الاخرى التىرأيتها فيلم "القط فريتز" وهو فيلم جميع شخصياته من الحيوانـات ولكن من بين القطط التى تلعب الادوار الرئيسية يوجد قط بروتستانتى وقط يهودى (كلمـة قـط فـى العاميـة الامريكية تعنى ايضا رجل) وشاهدت ايضا فيلم "بيتى سووب" الذى يحكى قصة استيلاء الزنوج علـى شـركة اعلانات امريكية والمفارقات التى تنتج عن ذلك ، اما فيلم " شيئا اللاتينى" فيحتفى بالاقلية البروتوريكية وترثهـا الكاثوليكى اللاتين – امريكى ، وفيلم "مارجو" يسخر من الكنائس البرتستانتينية فى جنوب الولايات المتحدة . بل ان هذه العنصرية زحفت على افلام الجنس التى تحاول معالجة عالم الجنس منفصلا عن التـاريخ والجغرافيـا والتربية الوطنية ، ففيلم "فيكسن" الذى يروى قصة امرأة شبقة لا يسلم منه احد يظهر فيه زنجى ثورى وكنـدى ماركسى

من كل ما تقدم يمكننا ان نخلص الى ان الكل الاميك المتجانس لا وجود له ، فهـذا الانسـان الجديـد البرىء من الشر والتاريخ والمعرفة لم يقدر له ان يخرج من البوتقة مبتسما كأنه فى اعلان تلفزيونى وخرج بلا منه الصهيونى مزدوج الولاء ، والافروامريكى حامل لواء قارتـه السـوداء والمـدفع الرشـاش والايرلنـدى الكاثوليكى الذى يرفع علم بلاده الايرلندية ، ويحاول التفوه ببضعة حروف من لغة بلاده الاصـلية وكـأن كـل حرف يحمل رسالة ذات معنى عميق.

اذا كان هذا هو الحال مع الولايات المتحدة ، فماهو الحال مع صهيون الجديـدة الأسـرائيلية ، وهـى صهيون لا يزيد عمرها الرسمى عن عشرين عاما تقريبا ولايزيد وجودها التاريخى عـن ذلـك كثيـرا ؟ مـن المعروف ان ظاهرة التفتت القومى (التى يواجهها المجتمع الامريكى الان بصورة مخففة) هى اخشى ما يخشاة حكام اسرائيل وهى ظاهرة تطل براسها فى فترات السلم النسبية التى تعيشـها اسـرائيل (مثـل الفتـرة بـين ٥٦و١٩٦٧) وتعبر عن نفسها فيما يسمى بالامتين الاسرائيليتين: اسرائيل اليهود الشـرقيين واسـرائيل اليهـود الغربيين . ولكن داخل كل "اسرائيل" يوجد جماعات قومية صغيرة لا تزال الى حـد مـا مزدوجـة الـولاء ، فالاسرائيليون المتحدرون من اصل المانى يكتشفون انهم المان و الاسرائيليون الفرنسيون فرنسيون مما يدل على انهم لم يكتسبوا الهوية الاسرائيلية اليهودية الخالصة ، وهذا يذكرنا بالفشل الذى لاقته بوتقة الصهر الامريكية .

و لكن ثمة فروق اساسية بين البوتقتين ، فالحصار الحضارى العربى المستمر يساعد الجماهير اليهودية المهاجرة الى اسرائيل على الذوبان فى فابريكة الصهر الاسرائيلية خاصة و ان هذه الفابريكة ليست ديمقراطيـة او ايبرالية او تلقائية بل هى امريكية واعية بذاتها تعمل حسب خطة و برنامج محدد ، كما ان عملية فبركة تراث يهودى خالص من تراث الدياسبورا المتنوع امر ايسر كثيرا من خلق تراث الامريكى من نقطة الصفر . و لعل

بعث اللغة العبريةفى العصر الحديث من اهم الادلة على ان بوتقة الصهر الاسرائيلية قد تصيب من النجاح ما لم تصبة اختها الامريكية .

ولكن مع ذلك يبقى عديد من الاسئلة التى تحتاج الى اجابة : هل سيصاب المجتمع الاسرائيلىبمرض التفتت القومى ام انة سينجح فى ان يظل جسما متماسكا رغم انة دخيل ؟ وما هو الدور الذى تلعبة طبقة " الواسب" اليهودية فى اسرائيل ، يهود شرق اوربا الذين يشغلون معظم القيادات الفكرية والسياسية والحزبية ؟ هل سيندمجون فى المجتمع الاسرائيلي حتى يصبح لة حركتة المستقلة عن اوربا والغرب ،ام انبوتقة الصهر الاسرائيلى ستنتج مواطنين موزعى الولاء بين واقعهم الاسرائيلى ووطنهم الاصلى ؟ وما هى امكانيات الستفادة من التناقض العرقى فى اسرائيل وهو تناقص لة فعالية تفوق احيانا فاعلية التناقضات الاجتماعية والطبقية المختلفة ؟ هذة هى بعض التساؤلات التى اثارتها رؤيتى للتفتت العرقى فى الولايات المتحدة ،وهى تساؤلات قد يكون من المفيد ان يحاول بعض باحثينا الاجابة عنها .

٣–لغة التعامل مع الواقع

حينما يتناول المصرى طعامه فهو يتناول وجبه ساهمت الاف السنين من التاريخ المصرى فى طهوها، ولهذه السبب نحن لا نقدم الكوسة المسلوقة (والعياذ بالله) الا للمرضى ، اما الاصحاء فهم ياكلونها اما بالبشملة ، او محشية بالارز او اللحمة المفرومة او كليهما ، اوقد تقدم مطبوخة بالصلصة والسمن البلدى وهذا اضعف الايمان . على العكس من هذا حينما يقرر المواطن الامريكى تناول طعام العشاء (الوجبة الرئيسية فى الولايات المتحدة) فزوجتة عادة ما تقدم له كمية لاباس بها من البطاطس المسلوقة او المقلية مع شريحة كبيرة من اللحم المشوى على الفحم (على طريقة ابائنل الاوائل)، او المطبوخ على نيران البوتاجاز (دون الاخلال بالبنية البدائية لعملية الطهى) ، فاذا اراد الامريكى التنويع فانه قد ياكل الهامبورجر وهو نوع من اللحم المفروم المحمر والمخلوط بالحد الادنى من الخضراوات والتوابل وهو عادة يؤكل ام بالخبز او البطاطس الحتمية . وحينما يسام الامريكى رتابة حياته الغذائية ويفكر فى تناول طعام جيد له مذاق خاص فهو عادة يتناول وجبة اجنبية (صينية او فرنسية) نتاج تاريخ بلد اخر ولذلك فمن ايسر الامور تناول طعام اجنبى بل وشراء مواده الخام فى اى مدينة امريكية .

وانا لا ابحث هنا عما اذا كان الاكل المصرى افيد او اصح من الاكل الامريكى ام لا ، وانما اشير الى طريقة "صنع " هذا الاكل والى ان الطريقة المصرية فى الطهو اكثر تركيبا من الطريقة الامريكية ، وهذا ينطبق على الفول المدمس الشهير ، الذى يترك على نار دافئة طوال الليل حتى ينضج ثم يضاف له بعد ذلك الزيت والملح والليمون .

واذا ما نظرنا الى علاقة الرجل بالمراة وبالاسرة فى المجتمعين المصرى والامريكى للاحظنا نفس الاختلاف ، فالرجل الامريكى حينما ينظر الى امراة فانه يرى امراة وحسب على قدر ما من الذكاء والحسن ، فاذا اراد التعرف عليها فلا داعى للمؤامرات والمناورات والتلمحات، واذا قرر الزواج منها فهو يتزوجها – ان هى وافقت – دون ضجيج اوصخب (ويطلقها بنفس البساطة) . وهو عادة ما يذكر هذا الامر لاسرتة (الاب والام والاخوه والاخوات فالاعمام والاخوال واولادهم ليسوا من الاسرة) . وقد يدعوهم لحفل زفافه ولكن هذا لايتم الا من باب العلم بالشيء وحسب لانه لا يبغى رضاهم ولا يخشى سخطهم ، فعلاقته باسرتة قد انقطعت

بعد بلوغه السادسة عشرة واقتصرت على المقابلات فى اعياد الكريسماس ثم تظل تضمر الى ان تظل قاصــرة على تبادل بطاقات المعايدة الخالية من اى محتوى انسانى شخصى ، فالرسالة المكتوبــة علــى البطاقــة عــادة ماتكون مطبوعة، بعنى انها ليست رسالة شخصية تعبر عن علاقة خاصة وانما هى اقرب الى التقرير العــائلى العاطفى . لقد اصبت بالغثيان حينما تسلمت تقريرا عاطفيا عائليا من هذا النوع ارسله لى احد اصدقائى يخبرنى فيه (ويخبر مائة شخص اخر) انه وزوجته واولاده يرفلون فى حلل السعادة وانهــم يخصــوننى بالســلام! ان علاقات امريكى الاجتماعية من البساطة الى درجة انه يمكنه ان يكتفى بالتقرير بــدلا مــن الخطــاب الخــاص التقليدى . وكم كنت اصاب بالذعر الشديد لرؤية هؤلاء الامريكان " المرنون " وهم يودعون امهاتهم ابائهم فــى بيوت العجزة ، وهى بيوت شيدت لتسد حاجة نشأت فى المجتمع الامريكى نتيجة لتفكــك اللاســرة المريكيــة . فعندما تبلغ سن الخامسة والخمسين فأنت لا تقطن مع ابن من ابنائك ، كما انك لا يمكنك ان تعيش فــى منــزل بمفردك لانه سيكون مكلفا وكبيرا ولذا تنتقل الى احد هذه المنازل المزودة بكل وسائل الراحــة العصــرية مــن سرائر نظيفة الى اجهزة تكييف هواء الى اسطوانات الى حجرات فسيحة تجلس فى احداها لتنظر الى التلفزيون بقية ايامك الارضية (لقد تحقق الفردوس الذى هو فى صميمه جهنم السوداء) .

اما المصرى فانه حينما ينظر الى امرأة فهو يرى امرأة ويرى طبقة اجتماعية وتاريخا طويلا ، فاذا قرر التعرف على المرأة – الطبقة فيجب عليه ان يعرف خلفيتها العائلية لان هذا سيحدد تكتيك واستراتيجية الهجوم ، وقرر الزواج فالزواج لايتم على سنة اللة ورسوله وحسب بل حسب ما تقتضيه الطقوس الاجتماعية من شــبكة ومهر ومقابلات بين الاسر للتعارف والتباهى . وهذا المصرى بعد تزوجه يبقى على علاقته بأمه وأبيه واخيــه وبأم زوجته وأبيها واخيها ، وعلى الزوج والزوجه ان يقسا وقتيهما بالعدل والقسطاس فــى زيــارة الاقــارب– اقاربها واقاربه ، والويل كل الويل لمن لا يبقى الموازين الدولية الدقيقة . فان اراد المصرى ان يطلق – لا قدر الله – فانه يكتشف ان الطلاق هو أبغض حلال عند اللة وان المجتمع لن يتركه وشأنه قبــل او بعــد الطــلاق ، فرسل الصلح وفاعلو الخير ولله الحمد كثيرون ، وحينما تهرم الام او الاب فاننا لا نرسلهما الــى اى فــردوس ارضى (فهذه المؤسسة العلمية المعروفة باسم " بيوت العجزة " غير معروفة بعد فى مجتمعنا المتخلف) ، بــل على المصرى ان يبقى على علاقته بأبويه ، يرسل لهما النقود ويحارب ضد زوجته التى ترى انه يبالغ بعــض الشيء فى كرمه ، كما تحارب هى ضده حتى تبقى علي علاقتها الوثيقة مع أمها (اى حماته المصرية الشهيرة) التى تنغص عليه عيشته دائما ان الفرد المصرى لاوجود له خارج هذه الشبكه الهائلة من الطقوس الاجتماعيــة والقيم الدينية ، فوجوده وجود اجتماعى تاريخى بالدرجة الاولى ، ووجود فردى بالدرجة الثانية .

ولعل هذا البعد التاريخى للوعى المصرى هو ما يفسر ظاهرة غرام السيدات المصريات الزائد بالماكياج (بغض النظر عن انتمائهن الطبقى). فالماكياج هو محاولة للبعد عن البساطة الاولى ، ان ارتداء لقنــاع الفــن فوق وجه الطبيعى وهو ضرب من الطقوس الاجتماعية التى تحول الظواهر البيولوجية الى ظواهر اجتماعيــة وتاريخية وانسانية . اما السيدات الامريكيات فنادرا ما يضعن هذه العطور والمساحيق الساحرة بهذا السخاء ، وان وضعنها فذلك لا يتم الا فى مناسبات خاصة جدا (وليس لمجرد الذهاب لحضور المحاضرات فى الجامعــة مثلا) . ولاحظت فى زيارتى الاخيرة ان ثمة ضيقا شديدا بالثياب من اى نوع ، ورأيت فى الطرقــات شــبانا وشابات يرتدون بالفعل الحد الادنى من الملابس (الامر الذى يذكرنا مرة اخرى بابائنا الاوائل). فالتخفيف مــن

الثياب فى امريكا ليس الغرض منه اثارت الفتنة (كما هو الحال فى بعض الحضارات !) وانما الغرض منه هو التبسيط ، ولذلك فالمرء يفزع من منظر الفتيان والفتايات منكوشين الشعر المرتدين الهلاهيل والخرق .

وبحث المواطن الامريكي العادى عن البساطة الاقلى الطبيعية قبل تحولنا الى مخلوقات اجتماعية تاريخية يتضح ايضاً فى كرهه العميق للمدينة وزحامها . وحينما كنت اذكر لاصدقائي انني لا يمكنني ان احيا الا فى المدينة نيويورك او على الاقل بالقرب منها كانوا لا يفهمون ما عنى على درجة الدقة ، فالحياة المثلى بالنسبة للامريكي العادي هى الحياة بجوار الطبيعة او " فى الريف " بهدوئه الفردوسي على حد قولهم . وعلى الرغم من ان هذا الامريكي العادي يعيش عادة فى منزل من دورين تحطيه صغيرة محاطة بالسياج والاشجار ، وعلى الرغم من ان مراكز الاستبضاع تبعد عادة عن مناطق السكني بضعة كيلو مترات) وهذا هو الجنون بعينه في نظري) الا ان هذا الامريكي العادى دائم التململ او الشكوى من الزحام ، لانه يود ان يحيا بمفرده انسان روسو الذى يعيش الفطرة والطبيعة دون تفسده والطبيعة دون ان تفسده الحضارة والمدينة . وقد يقال ان الامريكي اتلعادى يود ان يحيا على الفطرة على ان يكون معه عربتان وثلاجة وغسالة اتوماتيكية وجهاز تسجيل وفتاحة علب كهربائية وفى هذا بعد عن الطبيعة . ولكن دخزل هذه الاشياء لا يفسد بساطة حياته ، فالتاريخ والمجتمع ، وليس الآلات ، هما اللذان يأتياننا بالخبرة التى يفسدها علينا فردوس البراءة الاولى .

واذا قارنا سلوك الامريكي بسلوك المصرى فى هذا المضمار للاحظنا مرة اخرى الفروق الواضحة ، فطموح الانسان المصرى يتلخص فى يقطن بالقرب من اهله وعشيرته واسرته ، ويا حبذا لو كان الجميع فى القاهرة فى قلب العروبة النابض !

ولان الوجدان الامريكي يمرح فى براءته الاولى غير مثقل بالتاريخ نجد ان الامريكي لا يؤمن بأية مقدسات او حرمات او طقوس ، فكل شئ بالنسبة له خاضع للبحث بل والتجزؤ ، كأن الكل الحى يعادل جماع اجزائه الميته. بل ان التاريخ نفسه (او ما هو موجود منه) يتحول الى شىء او موضوع للتأمل او الى لحظات زمنية متتالية وليس كيانا حيا مركبا يمتزج فيه الحاضر بالماضى بالمستقبل ، ولعل هذا يفسر ولع الامريكيين بالتصنيف وتقسيم التاريخ الى مراحل متمايزة او خانات ضيقة . فالقرن العشرون يقسم الى اوائل القرن ثم العشرينات الرومانتيكية فالثلاثينات الثورية فمرحلة الحرب العالمية الثانية فعصر ايزنهاور والمكارثية فعصر كاميلوت(بلاط الملك ارثر المشهور بجون كنيدي !) ، بل اننى فوجئت فى زيارتى الاخيرة حينما شاهدت فيلم "القط فريتز" ان الفيلم يعالج اواخر الستينات وكأنها جزء من الماضى السحيق الذى انقطعت كل وشائج صلاته بالحاضر ، عصر كانت تعيش فيه شخصيات يفترض الفيلم انها مختلفة تمام الاختلاف عن شخصيات اوائل السبعينات! ان الوجدان الامريكى هو حقا وجدان الرفض للتاريخ والتراث بل وأى فكر مسبق عن الواقع ، وجدان تسيطر عليه الفلسفة البرجماتيه او الذرائعية سيطرة كاملة .

وتنطلق هذه الفلسفة من افتراض ان العالم ليس فيه نظام واضح ، اذ انه شئ نسبى متغير (وهذه الفلسفة تذكيرنا بالسفسطانى القديق الذى كان يعلم الناس نظير مبلغ يدفعونه ان العالم فى حالة سيولة دائمة وانك لا تستطيع ان تستحم فى نفس النهر مرتين) . هذه السيولة التامة جعلت من الكجتمع الامريكي مجتمعاً علمانياً بمعنني الكلمة ، لا تسطير عليه اية آراء كلية عن طبيعة الانسان والكون . وعلمانية المجتمع الامريكي الكاملة وتحرره من الوعي الاخلاقى التاريخي جعلت العقل الامريكي ديناميا الى اقصى الحدود ، متطلعاً الى معرفة كل

شئ بغض النظر عن الاعتبارات الخلقية او الجملية او حتى النتائج العلمية او الانسانية لهذه المعرفة . وعلى سبيل المثال كتب مؤلف امريكي دراسة عن " حسابات " جورج واشنطن ، مؤسس الدولة امريكية ليبث انه كان مختلساً ، وكنت اعرف صديقاً ماركسياً يكتب كتاباً عن حياة فلاديمير اليتش الجنسية وصديقة تكتب بحثاً عن الذوذ الجنسي بين البلاشفة ، وصديقاً ثالثاً يكتب عن عدد صور الدم فى المسرحيات الشعرية الانجليزية فى القرن السابع عشر . وقد يكون من المفيد ان نعرف ان كان واشنطن مختلساً ام لا ، وان كانت حياة فلاديمير اليتش اجنسية سوية ام لا ، ومدى شيوع الشذوذ الجنسي بين البىشفة وصور الد فى المسرجيات الشعرية الانجليزية فى القرن السابع عشر ، ولكن كل الاستناجات التى سنصل اليه مجرد تفاصيل مبعثرة ان لم توضع داخل اطار تاريخي فلسقي شامل .

ولكن الامريكي لا يشغل باله بهذا الاكار لانه لا يجب ان يصدع راسه بالتفكير فى الحقيقة ، وانما يحاول دائما ان يفعل ما يريد وما تميله عليه الاعتبارات النفسية الذاتية او العملية المباشرة (" اعرف نفسك " كان هذا هو شعار سقراط والفلسفة القديمة ، اما امرسون الكاتب البورجوازى الامريكي وجرى هوفمان زعيم اليبي فهما يناديان تفعل الشئ الذى يرضيك ــ فتحقيق الذات وليس معرفة الذات هو الخير الاسمى) .

ان المجتمع الامريكي مجتمع درائعي لا يشغل نفسه بالحقيقة النسبية التاريخية ولا يبحث الا عما يزيد من راحته وهنائة الماديين ، والباحث عن الحقيقة سيجدها فى كل ما يزيد الانتاج وما يثبت كفاءته بغض النظر عن قيمته الانسانية ، وهذا تعريف كمي للحقيقة يحولها الى حكم يمكن تجزئته وقياسه ، وهو تعريف " ديمقراطي " لانه يساوى بين كل الاشياء وينفى كل تدرج فى عالم المعرفة والقيمة ، فليس هناك اعلى ولا اسفل ، ولا يمين ولا يسار ، والماديات تساوى المعنويات ، والروح تساوى الجسد ظو والجميل لا يختلف عن القبيح ، والجاهل لا يختلف فى عمله وحكمته عن العالم ، فالمعيار الوحيد هو النجاح . ويتغني ويتمان الذات الامريكية الديموقراطية بهذه المساواة قائلاً :

انا شاعر الجسد وانا شاعر الروح ،

ملذات الفردوس معى ولىلام الجحيم معي .

وانه لا يفرق بين الموت والحياة او حتى بين الانسان والحيوان لانه حينما ينظر الى الحيوانات فهو يرى ان نفس القانون يسري عليه وعليهم ، وهذا هو منتهي المساواة الكونية !

ولكن رغم كل هذه "الديموقراطية " فان الدراس للحياة السياسية الامريكية يلاحظ انها تسودها روح من المحافظة والرجعية ، فاليسار الامريكي ، رغم نشاطه لايزال واقفاً على الهامش سجين اسوار الجامعات ، اما الحياة السياسية الحقيقية فيسيطر عليها حزبان ليس لهما برنامج سياسي واضح ولا يختلف الواحد عن الاخر اختلافاً ذا بال ، هذا العكس الحياة السياسية فى البلاد الراسمالية الغربية حيث ان اليسار قوى نسبياً له وزنه الذى يحسب له حساب كما هو الحال فى ايطاليا وفرنسا ، وهى بلاد تتسم بالتنوع الحزبي كما هو الحال فى انجلترا والمانيا الغربية .

وتتضح راجعية الحياة الحضارية الامريكية فى موقف الكنائس التى لا تزال مواقع ارتكاز لليمين الامريكي ، خاصة كنائس الجنوب ، بينما نجد ان ثمة حوارا دئرا بين بعض الفرق المسيحية فى اوروبا وبعض

المفكرين الماركسيين . وقبل الستينات كان من المستحيل تقريباً ان تجد استاذاً جامعياً فى امريكا يعتنق الفكر الماركسي علانية ، واذكر انه عام ١٩٦٤ حينما كنت ادرس للدكتوراه فى جامعة رتجرز ان القى البروفسور جينوفيزى استاذ التاريخ الامريكي محاضرة استنكر فيها التدخل الامريكي فى فيتنام ، فقطع برلمان الولاية كل المعونات المالية عن الجامعية التى اضطرت الى انهاء عقده على اثر ذلك (ولكن يجب ان اشير الى اننى لاحظت فى زيارتى الاخيرة ان عدد الاساتذة اليساريين الذين يشغلون وظائف دائمة قد زاد بشكل ملحوظ ، ولكن هذا لا يغير من الصورة العامة للمجتمع الامريكي) .

فما هو سر هذا التناقص بين العلمانية والديمقراطية من جهة ، وزالرجعية والمحافظة من جهة اخرى ؟ اعتقد انه من الممكن فهم هذا التناقص اذا ما تفحصنا الرؤية البرجماتية ذاتها ، فالرؤية البرجمالية بجعلها " النجاح " المعيار الوحيد على اى شئ وبالغائها التاريخ والتراث جعلت الحقيقة الوحيدة المقبولة الحقيقة السائدة او الحقيقة التى تسهل لنا التعامل مع الواقع كما هو وليس كما ينبغى ان يكون ، وهى لهذا رؤية محافظة مغالية فى المحافظة . اما الرؤية الثورية فهى على العكس من ذلك لا بد وان تطرح تصوراً جديدا للواقع مخالفاً لما هو قائم ، والا فى فيم ثوريتها ؟ هذا التصور يستند الى تحليل علمى للوقع وللتاريخ ولكنه فى الوقت ذاته يجب ان يتخطاهما ، لان الفكر الثورى يحاول ان يزود المجتمع باطار جديد يسمح للانسان بان يحقق امكانياته بشكل افضل . فالمنطق الثورى يفترض دائماً وجود تناقض جدلى بين ما هو كائن وما ينبغى ان يكون . فالقديم يحتوى جرثومة فنائه التى هى نفسها بذرة الميلاد الجديد ، والعقل الانسانى الواعي الخلاق يحتوى الواقع والاشياء ويتخطارها . هذا الجدل قد صفى تماما فى اطار الفكر البرجماتى وحل محله جدل دائرى زائف تسطير فيه الاشياء والماديات المصمته على عقل الانسان ، فالمطلوب فى الاطار البرجماتى الضيق ان يتعامل المرء بنجاح مع الواقع . ولكن التعامل مع الواقع المادى بالشروط التى يميلها هذا الواقع لا يؤدي الى تحولات راديكالية وانما ينجم عنه تقدم او تمدد افقى كمى دائرى لا تختلف فيه نقطة البداية عن نقطة النهاية . ان البرجمالية رؤية مادية لا روح ولا حياة فيها ، فهى تفترض خضوع عقل الانسان للاشياء وحدودها ولا تسمح لهذا العقل بتخطبها وتفترض عدم وجود ذات انسانية مركبة تحمل عبء وعهيا التاريخى فى مقابل موضوع يكتسب فحواه ودلالته من الادراك الانسانى المركب له ، وانما يوجد شئ يخشع امامه الانسان فى صمت كانه امام وثن او صنم .

ومن اصدق الادلة على فشل الرؤية البرجمالية ورجعيتها حرب فيتنام ، فرجال الحرب الامريكيين فى البنتاجون عندهم ادق عقول الكترونية فى العالم (او ادق آلات حسبة الكترونية لان العقل من هبات الله للانسان) ، كما ان لديهم تفاصيل تخص كل كبيرة وصغيرة فى فيتنام وجنوب شرق اسيا . وهو يغذون الحاسب الالكترونى بهذه التفاصيل فليفظ لهم نتيجته العلمية الآلية بسرعة باهرة . استمروا فى الحرب فاحتمالات النجاح اعلى من احتمالات الفشل . فتتحرك آلة الحرب الضخمة وتدك القرى الفيتنامية فى دقة آلية منتاهية وحماس برجماتى شديد ، ولكن الارنب لا يخرج من القبعة ولا يتحقق الفردوس ويظل النجاح فى فيتنام حلما يعذب الوجدان الامريكي . ان ما ينقص الكومبيوتر هو ما ينقص البرجمالية ، اعنى الرؤية التاريخية الشاملة ، وهى رؤية لا يمكن الا للعقل البشرى الواعى الخلاق الوصول اليها ، فهو وحده القادر على ادراك الرؤى المركبة والمختلفة كيفياً عما هو كائن . هذه الرؤى التى يسرى فيها نبض التاريخ والحياة تختلف اختلافاً جوهرياً عن الاجزاء المفتتة الميتة التى يلتهمها الكومبيوتر فى نهم وشراهة ، وهى رؤى تساعد الانسان على الانسلاخ عن واقعة المباشر المبعثر وعن الحركة الدائرة التكررة التى لا منعى لها ، حركة عالم السلع والاصنام .

٤ـ فلسفة الكاوبورى والحالوتس دراسة فى العنف البرجماتى

كان استاذى البروفسور دافيد وايمر يطلب منى دائما ان اقرا اعمال الفيلسوف وليام جيمس ، فيلسوف البرجمالية الامريكية . وحينما ذهبت فى عام ١٩٧١ اعطانى مختارات من كتاباته كى اقراها . ولكنها كانت مفاجاة لى ان اجد ان العالم الذى انتقى المختارات وقدم لها هو هوارس مايركالمن تلميذ وليم جميس والمفكر الصيهوني مؤلف كتاب Utopians At Bay فقررت على التوان اقرا كلا من المختارات والكتاب كي ادرس كيف يفكر البرجماتى ـ الصهيوني وكيف يدرك الواقع . وتعاملى مع البرجمالية لم يبدا من خلال صفحات الكتب ، وانما فى فناء جامعة كولومبيا عام ١٩٦٢ حينما كنت اجلس ذات مرة بمفردى امام المكتبة تحت تمثال الالماماتر واذا بفتاة تاتى وتحيينى وتسالنى عن جنسيتى فاخبرتها عربى مصرى ، فابتسمت وقالت انها خمنت ذلك من البداية ، فسالتها عن جنسيتها فاخبرتنى انها يهودية ، ودهشت لانها اخبرتني عن دينها وليس عن جنسيتها . ثم استمر الحديث الى ان وصلنا بطبيعة الحال للمسالة الفلسطينية واللا جبئين ، وساعدتها كان تحفظي ازاء اسرائيل ليس تحفظاً سياسياً (باعتبار انها قاعدة للامبريالية) وانما اخلاقياً (باعتبار انها الدولة التى طردت الفلسطنيين) ولذا اخبرتها انه يمكن حل المشكلة باعادة اللاجئين لديارهم ، ففوجئت بثلما شنكل تتحدث عن تخلف العرب العلمى والتكنولوجى وانه لا احقية لهم فى فلسطين . لقد سقط الحق التاريخي والانسانى فجأة وحل محلها فكرة السلاح والبقاء للاصلح . وبعدها اينما سرت واينما تحدثت عن فلسطين ، كان هذا الشعب الامريكي البرجماتى لا يتحدث الا عن فوهة المسدس ومن اسرع من من ؟ حقاً هذا زمن الحق الضائع كما يقول الشاعر المصرى .

لكل هذا ترتبط البرجماتية فى ذهنى بالعنف الذى لا عقل له ، وحينما قرات فى كتاب المختارات ، تحققت كل من ان فلسفة جميس رغم غطائها الانسانى المرن البراق تفى الحد الاقصى من العنف . والفلسفة البرجماتية اشتقت اسمها من الكلمة الاغريقية " براجما " اى فعل ، فهى فلسفة تدعى انها تدرس السلوك الانسانى دون اوهام نظرية عن التاريخ او الحقيقة وانها تشجع الفعل وتقلل من اهمية التنظير ، ويبدا هذا الفيلسوف الرقيق المؤمن بالفعل بطرح التقاليد جانباً ـ التقاليد الخاصة بطرق التفكير وعادات الحياة ، وذلك حتى يؤكد استقلالية الفرد وحقه فى ان يحزر النجاح ودرجة التميز والامتياز التى تقع داخل مجاله ، حسب تصوره ، وبالطريقة التى تناسبه وبجهوده الخاصة ، وحسب درجة المخاطر الذى يخوضها اثناء صراعه الذى لا نهاية له فى ان يعيش فى هذا العالم المتغير الذى لم يخلق من اجله ، هذا العالم الذى لا ضمان فيه لاى شئ . وكان جميس يؤكد فى مذكراته واحاديثه انه سيقوم باداء واجبه مؤملاً ان الاشياء الخارجية هى الاخرى يتقوم باداء واجبها ختى يعم التناسق . ولكن دون اناه ستفعل ، وغياب الضمان ، حسب تصوره ، هو جوهر التجربة الانسانية الحقة ، اذ لا بد وان ينطوى موقف الانسان فى الحياة على عنصر من التوتر النشط .

هذا عالم تحفه المخاطر اذن ، لا قوانين فيه ولا روابط ، وهنا تبزر اهمية الادارة الفردية المتحررة من اية قيود او اغلال . فالحقيقة هى ما تعرفه انت عن الواقع ، والحياة اليومية نراها ونلمسها ونشمها ونتذوقها والتى نكافح ضدها ونعمل ليست سوى تجربتنا لها . بل ان الامر لهو اعمق ذاتية من هذا ، فنحن ، حسب تصور جميس ، لو آمنا بفكرة ما لاننا شئنا ذلك ، فهذا ليس بالضرورة خداعا " فالواقع هو رؤيتى وقناعتى (وتزعم البرجماتية انها فلسفة عملية واقعية) وما العالم سوى تيار من التغير الذى لا نهاية له ، ونحن الذين

نقرر هذا او ذاك . والمعرفة ، كل المعرفة ، حسب هذه الفلسفة نسبية وذاتية لاوجود لهـا خـارج اذهاننـا ، والحقيقة ليست شيئا موجودا فى الافكار والرؤى ذاتها وانما هو شيء يحدث لها اثناء اسـتخدامنا اياهـا فـى المواقف العملية المختلفة ، وبذا يصبح الانسان حرا فى ان يصدق اى شيء طالما ان تصديقه او عدم تصديقه لا يتناقص مع تجربته ومعرفته العملتين (وهما مختلفتان اختلافاً بينا عن وعيه الاجتماعي التاريخي) .

اما القيم الانسانية العالمية الشاملة التى تتسم بشئ من الثبات فهى فى الواقع قيم اتفقنا نحن وضعياً علـى انها عالمية وشاملة ، بينما هى فى حقيقة الامر ليست كذلك ، فكل شئ نسبى متغير والشئ الحقيقى لـيس هـو الشئ العقلانى (المطلق) كما يقول هيجل ، وليس هو ما يتفق مع القيم الاخلاقية والدينية كمـا تقـول معظـم الاديان السماوية ، وليس هو ما تعبر عنه القوى الكامنة الوليدة داخل المجتمع الانسانى كما ينادى ماركس وانما الحقيقى هو ما ينجح . ان اى شئ ينجح فى ان يحزر مكانة خاصة به وفى ان يفرض نفسه على تيـار التغيـر تصبح مكانته قائمة وثابتة ، فالطبيعة تلد كل شئ ولا تتحيز لاى شئ ،ولا يوجد اى شئ احق من اى شئ اخـر او فضيلة اهم من فضيلة او رذيلة اخرى . كل شي لا يزال فى دور التكوين ، والتغير والنمو هما سمة كل شيئ سواء فى حياة الانسان او فى الشيء العابر الذى لا يعيش الا العدة ثوان . وليست الطبيعة الخارجية وحدها هى المتغيرة والمتقبلة ، فالطبيعة الانسانية هى الاخرى ليست اقل تغيراً ... الخير والحقيقة والجمال والعقلانية ليست امورا اساسية ، فهى ليست امورا معطاة وانما هى مرتبطة بالنتائج ، بل انها امور تظهر فى النهايـة بعـد ان نكون مارسنا ما اردنا ممارسته .

على قمة هذ التغير الدائم وعل قمة هذه الحرية الكاملة يقف " العبقرى " . ويميز الفيلسوف االبرجمـاتى بين البشر والعباقرة ، " كمعطى " ــ تماماً كما يتقبل داروين " الطفرات " فى الطبيعة ، فهى ليست جـزءاً مـن التطور العادى . وحتى اذا كانت مرتبطة بها نابعة منها فهى على الاقل مرحلة مختلفة كيفياً عن بقية المراحـل التى سبقتها . وعلاقة العبقرى بالبيئة تكاد تكون علاقة غير جدلية فهو بمثابة الخميرة التى تقوم بتغيير البيئة ــ تماماً كما يغير وصول نوع طبيعي جديد التربة الطبيعية ويغير اتزانها النباتي والحيوانى .

ان العبقري هو الحجر الصلب الوحيد الذى يقف امام التيار المتغير ، بل ان العبـاقرة يعيـدون تنغـيم العلاقات الاجتماعية السائدة على نطاق كبير او صغير ، " وثروة الامم " ليس فى كفاح جماهيرها ضد الطبيعة ذاتها وانما " هو عباقرتها " .

هذا العالم البرجماتى الهادىء العملى ، ان هو الا عالم نيتشوى داروينى يمـور بـالتغير الـذى يعمـى الابصار ويجرف كل شيء فى طريقة الا العبقرى – انه ولا شك عالم البقاء للاكثر عبقرية او للاصلاح. ونحن لانبالغ اذا قلنا ان هذا هو جوهر رؤية جيمس للانسان ، فحسب تصوره ، الانسان هو الحيـوان الوحيـد الـذى يفترس ابناء نوعه ، اذ ان الانسان قد تكيف والى الابد مع حالة الحرب ولا يمكن لسنوات السلام مهما طالـت ان تمحو من الوجدان الانسانى الرغبة فى الحرب . (لقد ولدنا كلنا لنحارب) ، بل ان الحرب هـى الطبيعـة البشرية فى ذروتها . والمجتمع سيصاب حتما بالعفن دونها ، دون ذلك (البذل الصوفى للدم) كما يسميه جيمس ، وما سمو العقل بين سائر البشر الا نتيجة الرغبة فى السيطرة ، ان تذبح الآخرين او تذبح . يا الهـى ! مـاذا حدث للهدوء البرجماتى المرن العملى – والذى يتباهى به البرجماتيون ويتفاخرون ؟ اقد ظهر نيتشه وداروين (والسفك الصوفى للدماء) ، نعم (الصوفى) فى كتابات البرجماتى ، كما لو كنا فى عالم بدائى رهيب – عالم

روسو بعد ان سفطت اقنعته المتحضره . نقول نيتشه وداروين ولكن فى تصورى انداروين هو البنية الكامنة الحقيقية والتعبير الفلسفى عن رؤية نيتشه وجيمس ، فداروين ، او لكى نتوخى الدقة ، الدارو ينيون ، حينما ينظرون الى ظاهرة الانسان ، فهم لا يضفون عليها اى خصوصية ، وانما يرون الانسان على انه كائن طبيعى تنطبق عليه كل القوانين الطبيعية ، شأنه فى هذا شأن اى كائن اخر دون اى تمييز خلقى او تاريخى او جمالى – والقانون الذى يحكم الجميع هوقانون " البقاء للاصلح " . وقد ورث نيتشه هذا المفهوم وطوره وجعله اساس تطور المجتمع الانسانى وليس الوجود الطبيعى وحسب .

وجيمن ينتمى لهذا النمط من المفكرين البورجوازيين الذين يضعون الانسان امام خلفية طبيعية ، مسقطين الخلفية التاريخية تماما ، او اذا ابقوها فهى تظل على مستوى الحد الأدنى او القشرة ، او من بيل الديكور وليس الا . ونحن اذا استعرضنا آراءة التى عرضنا لها من قبل لوجدنا ان الخط الرئيسى فيها هو نزع الانسان من سياقه التاريخى . فهذا الانسان الذى يعيش فى خطر فى عالم دائم التغير ، لا ضمان فيه، هذا الفرد الذى يفعل ما يشاء والذى لا يعرف الا ما يجرب والذى ر يوجد داخل نسق متكامل من القيم والافتراضات والذى يتطاطور حسب قوانين تشبه قانون تطور الطبيعة من مساواة عمياء بين كل الافراد الى طفرات كيفية تفرق بينهم ، هذا الفرد هو ولا شك انسان الطبيعة ، الذى ر توجد اى قيود عليه ، ولكنه فى الوقت ذاته لا يمارس اية حريات لانه يعيش فى عالم الصدفة– والحرية المطلقة والصدفة هما نفس الشىء . هذا الاستقطاب الحاد ر يحمسه الا شىء واحد ، العنف – البقاء للاصلح – المسدس – الردع التكنولوجى – اسعار البورصة او العبقرى كمعطى طبيعى ...الخ...الخ.

فى داخل هذا الاطار الفلسفى لا بد وان ينشأ نمط انسانى يجس هذه الفضائل او هذه الرذائا او هذه الصفات التى لا هى بالفضائل ولا بالرذائل لانها قانون طبيعى يعلو على الخير والشر ان اردنا استخدام المصطلح النيتشوى . وهذه الشخصية فى كتابات جيمس هى الرائد الامريكى او الكابوى المؤمن بمقدراته الخارقة للعادة على اخضاع اى شىء وعلى غزو البرية العذراء (ونر\لاحظ الخلفية الطبيعية لسلوك الرائد فهو يتحرك دائما خارج التاريخ او على هامشه) .

ويؤكد كالن محرر مختارات جيمس وتلميذه الصهيونى ان موقف جيمس من الواقع بل من الوجود الامريكى ككل يشبه موقف الرائد الامريكى من عدة وجوه ، فالشعب الامريكى يستجيب للواقع استجابه حرة لم تقررها من قبل عادات اجتماعية او اية عادات خاصة استجلبوها من اوروبا معهم ، فهم قد طرحوا هذا التاريخ جانبا ليدخلوا فى علاقة مع عالم لم يسبق له مثيل ، عالم محفوف بالمخاطر ولا يمكن التنبؤ به . الدخول ف تجربة لا تعرف نتائجها مقدما – هذا هو جوهر تجربة الرجل الابيض فى امريكا . ان الرجل الابيض فى امريكا . ان الرجل الابيض فى امريكا هو الرجل البرجمانى بالدرة الاولى والسوبر مان الحق والكابوى الذى لا يهاب شيئا ويبنى بيته بجوار البركان ، كما يخاطر بكل شىء فيفقد كل شىء او يربح كل شىء – الصدفة والحرية المطلقة مرة اخرى (وليس الحرية المطلقة من خلال معرفة قانون الضرورة) .

ولكننا لو تعمقنا قليلا فى هذه البنية الداروينية النيتشية لنصل الى اساسها الاقتصادى لوصلنا الى شخصية التاجر ، فالرائد هو التاجر الأعظم الذى يتاجر بكل شىء ويخاطر بكل شىء حتى حياته وجسده . بل انه يكاد يقترب من العاهرة فى هذا ، فالعاهرة هى الانسان – السلعة التى تصل الى منتهى التموضع والانحراف

الكامل عن الذات الانسانية حيث يدخل الانسان فى علاقة موضوعية مع الآخرين ليس فيها ولا شر ، ويكون هو نفسه (الذات الخلاقة) الموضوع الذى يستهلك ، وتكون الذات الاخرى موضوعا آخر ، باعتبار انه مصدر للمال وحسب . الرائد يترك تاريخه وتراثه وقيمه واسرته ويحمل مسدسه وجسده ليدخل فى صراع مع الآخرين يكون هو الصائد او الفريسه . وفى هذا الاطار يمكننا ان نفهم الجوهر الرأمالى الكامن وراء عبارات برجماتية نشطة مثل "المخاطرة" "الممارسة الحرة " ، " عالم بلا ضمان" ، " الصدفة " ، " الحرية الكاملة " ، " مشروع لا تعرف نتائجه مقدما" . ولعل الفارق الوحيد بين الرائد والعاهرة ، يكمن فى ان الاول يحمل مسدسا ويرتدى ملابسه (والردع المسلح هو ادنى مستويات الحضارة ، فصل الانسان عن الطبيعة وتحول من فريسة الى صياد حينما اكتشف السلاح) ، اما العاهرة فهى تعود للكبيعة بالفعل فهى لا تحمل سلاحا ولا ترتدى ملابسا ، ولكن يظل الفارق بينهما طفيفا ، على مستوى الحد الادنى، الذى يفصل بين الطبيعة والتاريخ . نحن هنا فى سوق الاوراق المالية – فى السوق الذى لا نقابل فيه بشرا وانا نتصارع معهم فنصرعهم او يصرعونا . ان الرائد هو حقا التاجر الاعظم او البرجوازى دون اقنعة.

وقد نشأت البرجماتية فى تربة الرأمالية الناهضة الواثقة ممن نفسها والمؤمنة باخلاقيتها او لا أخلاقيتها المنية على التنافس والصراع والفردية . ومن هنا كانت مثاليتها وعمليتها المفرطة ، فه مثالية مفرطة بسبب عمق ايمانها بمقدرة الرأسمالى الفرد على ان يأتى بالعجب العجاب وان يخلق فائض القيمة من العدم بأفكاره الذكية ومقدرته على المناورة والبيع بأسعار مرتفعة . وهى مثاية فى التزامها بفطرة الفرد الحر الروسوى الذى يسير بمفرده ويوقع على ورقة تعاقدية هو كل ما يربطه بالمجتمع او الدولة والدولة هى القيد الوحيد الذى ارتضاه لنفسه الامن ، اى انه حتى بعد ان يوقع العقد ، ظل هو المحور والمركز (وانقارن هذا بفكرة الممارسة الجماعية عند ماركس او فكرة العمل الانسانى الجماعى كمصدر لكل قيمة ، فالانسان كجماعة قد خلق نفسه ولا وجود له خارج هذه الجماعة . ولذا تظل فكرة الحدود التاريخية من صميم المفهوم الماركسى للحرية) .

والرأسمالية رغم مثاليتها المفرطة عملية مفرطة لانها ترتكز على السوق الذى يحدد كل القيم حسب دوراته اللامتناهية ، وحسبما تمليه قوانين العرض والطلب الذى لا يمكن لانسان التحكم فيها . اى ان الانسان صانع كل شىء لا يملك فى الوقت ذاته من امره شيئا ، ولكن الرأسمالية فى مثاليتها وعمليتها ، اى فى حديها الأقصى والأدنى تظل منفصلة عن فكرة القيمة ومرتبطة بفكرة الثمن والعرض والطلب والشراء بأرخص الاسعار والبيع بأغلاها وهطذا . ولعل هذا يفسر ايمان المجتمعات الرأسمالية المجنون بفكرة التقدم – التقدم دائما وبأى ثمن ونحو اى اتجاه وبغض النظر عن مقدار السعادة او البؤس الذى يحيق بالبشر – لكن التقدم والحركيةولسلام ، الى ان يصبحا هدفا فى حد ذاتهما تماما مثل دائرية الطبيعة العبثية التى تتحرك دون توقف . هذا الاستقطاب العميق ، هذا المزيج الخرافى بين الحرية والحتمية ، والمثالية والعملية ، هذه العودة للطبيعة الروسوية – الداروينية – النيتشوية ، وهذا التعالى الكامل على الاخلاق ، وهذا الالتزام اللاعقلانى نالحركة " الطبيعة " هو ايضا البنية الكامنة فى الفكر الصهيونى . فالصهيونية ايضاً فى جوهرها محاولة لتعرية فلسطين من تاريخها وتحويلها لمجرد " ارض " شىء ينتمى الى عالم الطبيعة اكثر من انتمائه لعالم التاريخ ، وهى ايضا محاولة لاسقاط حق الانسان الفلسطينى التاريخى فى ارضه (باسم التقدم) حتى يصبح مثل الهنود الحمر ، انسانا طبيعيا كونيا لاتحده حدود وبذا يمكن اصطياده كالفريسة دون اى هلع او وجل اخلاقيين . بل وتحول الصهيونية اليهود انفسهم الى مخلوقات مثالية لا تاريخية آليه فى بساطة الظواهر وتحددها (وان كانت الصهيونية تحول

فلسطين الى ارض ، والى " ارتس اسرائيل " فى ذات الوقت ، ولـذا فالفلسـطينيون يـذبحون باسـم التقـدم التكنولوجى والتلمود فى ذات الوقت) .

ويقول بعض دارسى البرجماتية ان انكار الامريكيين لقيمة التاريخ مرده أنهم نشأوا فى العـالم الجديـد وليس فى العالم القديم ، وان الهنود الحمر كانوا يعيشون فى اتساق مع الطبيعة وان حضارتهم ذاتها لم تصـل الى وعى تاريخى بذاتها ، ولذا كان من الحتمى على اليانكي ان ينكروا التاريخ فى بلد لا تاريخ له . ولكننا نعتقد ان لا تاريخية الوجدان الامريكي تعود الى بناء البرجمالية الكامن ذاته ، فالهنود الحمر رغم انه لم يكن عنـدهم وعي بالتاريخ ، الا انهم كانوا يشكلون نوعا من الوجود التاريخي ، كما ان الاسـتيطان الاسـبانى البرتغـالى (الكاثوليكي) فى امريكا اللاتينية لم يكن مبنياً على انكار التاريخ ، ولعل الاستيطان الصهيوني فى فلسطين اكبـر دليل على ان انكار التاريخ جزء من بناء البرجمالية ذاته ، فالصهيوني لم يكن عنده عـذر ، ففلسـطين كانـت عربية وجزءاً من تاريخ عربي قديم متماسك . ومع ذلك نجده يصر على القول بانها ارض بلا شعب (وان كان وضع امريكا الخاص قد ساعد ولا شك على تدعيم اسطورة الفردوس اللاتاريخي).

وهذه النزعة اللاتاريخية اللاأخلاقية ـ المثالية / العملية التى تسمى البرجمالية والصهيونية تظهر فـى صفحات كتاب البروفسور البرجماتي الصهيوني كان المثاليون فى مأزق . ويلاحظ كـالن العلاقـة الوجدانيـة الوشقة بين اسرائيل والولايات المتحدة بل والتشابه البنيوي بينهما . فهو فى بداية كتابه يؤكد لقارئه ان كلا مـن اعلان استقلال اسرائيل والولايات المتحدة هما تعبير عن مسيرة الانسان نحو الحرية ، ونحو مزيد من التقـدم . وهو فى كل صفحة من صفحات الكتاب يعرفنا بنفسه على انه " امريكي " يلاحظ بعيون امريكية ، ونجده امـام احدى مستعمرات الناحال يتذكر كتابات جيمس . وهو فى اول صفحة من صفحات الكتاب يذكر لنا قصة طريفة لابد وانه ، مثلنا ، يعرف مغزاها العميق . فقد قابل البروفسور الصهيوني مهاجراً من البلاد العربيـة يعـرف التلمود معرفة كاملة ويتحدث العبرية بلكنة عربية افريقية ! وقد اصر عالمنا التلمودى ان يمسك بيد البروفسـور الصهيوني اليمنى وليست اليسرى لا عرفها ، ثم يتحدث كالمن عن اسباب هجرة التلمودى الاسرائيلي : " وبغض النظر عن الافراح والاتراح ، ترك الرجل هو واسرته المنفي والاسر (اى بلاده العربية) وهاجر الى الحريـة فى اسرائيل ... ومما لا شك فيه ان المشايخ سيأتي بعد هذه الخطـورة (تجميـع المنفيـين) " . (لا يخبرنـا البروفسور الصيوني اليانكي عن رايه فى هذه الاحلام التلمودية) . وحينما عرف التلمودى اياه ان البروفسـور امريكي الجنسية حاول تقبيله على حاجبه (لاسباب تلمودية لا اعرفها ايضا) ولكن تسببت مقاومة البروفسـور لهذه الهجمة ان التلمودى اكفى بتقبيله على كتفه وحسب واستمر فى تقبيله عدة قبلات . وفى فيض هذه العواطف التلمودية البرجماتية نعرف ان هذه قبلات زواج بين الايدولوجيتين البرجمانية الصهيونية والبرجمانية الامريكية . فقد اخبر العالم التلمودى البروفسور اليانكي ، والدموع تترقرق فى عينيه ، وان يهود الولايات المتحـدة هـو وسيلة الله التى ادت خلاصة . يهود الولايات المتحدة اذن وتمويلهم للصهيونية هو البناء التحتى البرجماتي للبناء الفوقي التلمودى لتخرج بنية مدهشة تسمى صهيون او يسرائيل او الدولة الصهيونية او مدينة اسرائيل او الدولة اليهودية او دولة اليهود ، سمها ما شئت فان مايهمنا هو تلاقي العقلتيتين .

لا يكف كالن عن التفلسف فى كتابه فهو استاذ فلسفة لا يمكنه ان يلاحظ الاشياء دون ان يضعها فى نسق فلسفي كامل . وعلم كالن مثالي / عملى برجماتي حتى النخاع ، فحق اليهود فى فلسطين امر منطقـي للغايـة

يسبب شعورهم القوى والجارف بمركزية اسرائيل فى حياتهم ، فأينما ذهبت فى العالم تجد اليهود يتطلعون لارتس يسرائيل ويحملون بها ، وهم فى الوقت ذاته يذكرونك بأن هتلر قد يحدث فى اى مكان . وبسبب هذه " الحالة الشعورية " تصبح فلسطين من حق اليهود وليس العرب . ومما ادهشنى ، انا الايديولوجى المتعنت ، رفض البروفسور البرجماتى لاستخدام بعض المقاييس البرجمانية ليتحقق من مدى قوة هذا الشعور وهل هو حقيقي ام زائف — اليس من الواجب ان تخضع كل الاحاسيس للقياس ، فاذا كان شعور اليهود فى المنفى والاسر حقيقاً وقوياً فعلاً ، فلم يمكث غالبية يهود العالم فى ديارهم المهددة بالهتلرية ؟ واذا كان حق العودة يستند الى قوة الشعور فاعتقد ان الفلسطينيين اثبتوا ايضاً قوة شعورهم ! .

وفكرة الحقوق التى يستند الى حالة شعورية تستند بدورها لرؤية غربية للتاريخ ، فالتاريخ هو ايضاً بالنسبة للبروفسور حالة شعورية وايمان وحسب . ومنالمثير للدهشة ان البروفسور البرجماتي يتفق فى هذا مع صديقه التلمودى ، فالتلمود قد ساوى بين عقائد اليهود وتاريخهم المقدس وتارخهم الحقيقي . فان اخبر الله اليهود فى التوراة انه قد وعدهم ارتس يسرائيل فقد اصبحت هذه الرقعة من الارض ارضهم عبر التاريخ . ان التاريخ كما يقرر البروفسور كالن " هو الماضي كما يتذكره الانسان " . ولكن التاريخ كوجود ذاتي او كذكرى وحسب هو الاسطورة بعينها . فالتاريخ ليس من الماضي ، واسترداد الماضي شئ ووجود فى الذهن شئ اخر . واذا كان التاريخ هو الاسطورة التى نتذطرها او الكتاب المقدس الذى نؤمن به ، فالعالم الخارجي يختفى وندخل فى عالم الرؤى والفردوس والمثل العليا التى لا يسندها سند . ويقتبس كالن من اعمال ثورو المفكر الامريكي الترانسندنتالى البورجوازى الذى يقول : " ان بنيت قلاعك فى الرمال ، لا تندم على ما فعلت فهذا هو المكان الذى يجب ان تبنيها فيه ، وما عليك الآن الا ان تضع قاعدة تحتها " تماما مثل الجدل الهيجيلى الذى يقف على راسه . ولو نقب عالمنا الصهيوني قليلا فى كتابات هرتزل لوجد عشرات العبارات التى لا تختلف من قريب او بعيد عن عبارة ثورو . فالزعيم الصهيوني كان دائم الحديث عن المثل الاعلى ، عن الفكرة التى سيصنع تحتها اساسا راسخا فيما بعد .

ويحاول كالن ان يشرح لنا فكرته عن التاريخ كذكرى فى احدى عباراته التى لها جرس يذكرنا بأقوال الانبياء فى العهد القديم : " تحولت الرغبة الى نبوءه والنبوءة بدورها تحولت الى ذكرى والذكرى اعيد تشكيلها الى وعد والوعد تحول الى مشروع" . وبغض النظر عن موضوع الرغبة، فان كل ما يهمنا هو ادراك الواقع والتعامل معه ، فالرغبة تحولت الى نبوءة وتاريخ ، باعتبار ان الذكرى هى التاريخ والذكرى والوعد والمشروع ترجمت نفسها الى مشروع استيطان فلسطين او تعميرها او تفريغها من سكانها .

يذوب التاريخ اذن فى وجدان من يرغب ويصبح بلا حدود ، ثم يظهر جيل من حملة التراث اليهودى " المثاليون " اذين يحلمون ويفرضون حلمهم دون اى اعتبار لاى تاريخ ، فالتاريخ هو ما تشاء (ولنذكر انفسنا دائما ان البرجماتية – كما يقال – فلسفة عملية !) . والطوباويون الذين يشير اليهم عنوان الكتاب هم اسرائيليون – كل الاسرائيليين . ويخبرنا كالن ان اليوتوبيا حالة عقلية ، وهذا امر لا جدال فيه . ولكن ما ينساه البروفسير هو ان اليوتوبيا – مثل الحلات الحقلية – انواع ، فهناك الفردوس السماوى الذى نحلم به ونحمله فى قلوبنا اينما سرنا ولا نتوقع ابدا تحقيقه هنا ، ولذا فنحن نضع فيه امالنا ، كل مالم وما لن يتحقق "الآن" و"هنا" فهو حلم فردوسى كامل ، نحن فى امس الحاجة اليه رغم استحالة تحقيقه .. ولكن هناك اليوتوبيا الثورية

التاريخية ، وهى ايضا تستند الى حلم ولكنه حلم ينبع من الواقع ويعود اليه ، محدود بحدوده الزمانية والمكانية وبامكانياته الحقيقية ، وحيث انه حلم نابع من الواقع ليعود اليه لا يحق لى ان اطلق لوجدانى العنان وانما يجب ان اظل داخل حدود الزمان والمكان . فاليوتوبيا اذن حاله عقلية فى بعض وجوهها ، ولكن الحالة العقلية درجات . ولكن كالن البرجماتى (نعم البرجماتى) لا يعرف حدودا ، فاليوتوبيا هى مادة الاشياء التى نأمل فيها ، وتقوم شاهدا على اشياء غظورتدون ان تحدها الحدود . وفى اسرائيل الموعودة يكتشف هذا اليانكى الصهيونى ، لن كل الرجال والنساء هنا طوباويون وان ارض بيلاه (الفردوس) " هى الرؤية التى لم تتجسد بعد فى اى مكان ولا اى زمان ، ولم تتحقق فى الواقع فى اى مكان ولا فى اى زمان على الارض ولكنها دائما على وشك التجسد فى هذا المكان : هنا ، وفى هذا الزمان : الآن " . ان الفدوس الذى يريده كالن هو الفردوس الان وهنا – وهو بهذا يكون امريكيا حتى النخاع . واذا كان هناك اى شك فى مكان الفردوس الذى يحلم به كالن ، فانه يزيله تماما ان بعض الاديان قد حددت اليوتوبيا على انها " غد" سماوى لن يلحق به تلانسان بتاتا فى يومه الذى يعيشه . ولكن توجد اديان اخرى ترى ان " غد " ان الا يوم يعمل ويحارب من اجله المؤمنون ويحاولون تحقيقه فى ايامهم الا رضية كى يستمتعوا بحاضر فردوسى . هؤلاء المؤمنون يحاولون يوما بعد يوم ان يشيدوا مدينتهم الفاضلة التى يحلمون بها الان وهنا . انهم يريدون ان يحيوا فردوسهم وهم احياء وليس بعد موتهم . الفردوس السماوى كما يرى الصهيونى قابل للتحقيق اذن !

والطوباويون السرائيليون يقومون بالفعل بتشييد الفردوسالسماوى الارضى (بأموال يهود الدياسبورا) . وهم فى محاولتهم هذه لا يفصلون بين المعجزات الالهية ومبادىء وممارسات رجال العلم فى معهد وايزمان او التخنيون ، وعن طريق هذا التزاوج والتجاخل بين المقدسات الدينية المطلقة والحقائق العلمية النسبية ، يتحقق الفردوس (المؤسس على جثث الفلسطينيين والنابالم).

ويبدو ان الطوباويين اكثر تواضعا من البرجماتى الصهيونى نفسه ، فقد اخبره احدهم " اننا بشر عاديون ، نحارب مثل اى شخص آخر " . " ولكن" اجاب الفيلسوف كلا وألف كلا العبارة السابقة اضافتى العربية الخطابية) الا يوجد ما يميزكم عن الآخرين ؟ هل كفاحكم مثل كفاح المصريين او الروس او الهنود او الامريكان ؟ هل هذا يعنى انكم تحاربون من اجل لقمة العيش وحسب؟ كلا وألف كلا (اضافتى الخطابية مرة اخرى) نعم تحصلون على لقمة العيش ولكن لقمة العيش هذه لا تغذى الجسد الذى يكد ويعرق ، وانا تغذى تفرد الروح ، هذا التفرد الذى تعبر عنه كلمات مثل " يهوودى "و " اسرائيلى " ، ثم تعود مرة اخرى للذكريات والرؤى اليهودية التى توحد هذا الشعب اليهودى " . ثم نكتشف ان هذه الذكريات لها بريق صوفى خاص فهى تحول الخبر الذى يتناوله الاسرائيليون الى ما يشبه الخبز المقدس الذى يتناوله المسيح فى صلواته على انه جسد المسيح : اى ان المجتمه الاسرائيلى تحول الى مل يشبه التجربة الدينية والفردوس السماوى – آمين. لقد تداخل النسبى والمطلق تداخلا كامل وانتهى الجدل والتاريخ . ما ينساه او رما ما لا يعرفه هذا البرجماتى ذو الحواس الخمس ، هذا الفيلسوف الذى يساوى بين المعزات الالهية والمنجزات الآليه وبين الفردوس السماوى والرخاء الارضى ان التجربة الدينية تجربة فردية يمارسها الفرد حتى لو كان ينتمى لجماعة ، كما ان التجربة الدينية لا تغطى جوانب الحياة ، فالحياة ليست صافية ولا فردوسية زلا مطلقة ، وادعاء مثل هذا الصفاء وهذه الردوسية وهذا الاطلاق لاسرائيل هو جوهر الغيبية العلمية ، فهو يضفى الاطلاق والكمال على ما هو قائم بالفعل ، وعلى

قوانين الحركة السارية فى المجتمع ، بحيث لا يمكن اخضاعها لاى نقاش – اى انها غيبية تخفى الجدل تحت قناع العلمية .

لقد وصلنا اذن لارض المطلق البرجماتى الذاتى ، ولكن قبل ان نستمر فى رحلتنا مع كالن لابد وان نعرض للجانب الآخر للمطلق البرجماتى وهو المطلق البرجماتى الموضوعى ، اذ يبدو ان طريقة الادراك البرجماتى تؤدى اما الى هذ او الى ذاك اوالى هذا وذاك فى ذات الوقت . فالبرجماتية فلسفة الارادة المطلقة تدعى ايضا انها تؤمن بالحقائق الموضوعية والحقائق الموضوعية وحدها والتى لا تقبل النقاش (اكاد اقول والتى لا يأيتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها) . وقد يبدو ان هناك تباينا واضحا بين المطلق البرجماتى المثالى والمطلق البرجماتى الموضوعى ، ولكن بقليل من التمحيص نكتشف ان المثالية هى الوجه الآخر لموضوعية الميكانيكية . فالرصد البرجماتى للواقع مبنى على فصل العناصر عن بعضها وعن ماضيها وبالتالى عن وزنها الفعلى ثم يقوم الدارس بعد ذلك بتبويبها . فلو نظرنا للصراع العربى الاسرائيليى من منظور برجماتى محض للاحظنا ان هناك طرفين للصراع : واحد حربى وآخر اسرائيلى ، ثم للاحظنا ان العرب عندهم مطالب فى فلسطين وكذلك الاسرائيليين ، وان العرب عندهم بعض الحق وكذا الاسرائيليين . ومن هنا نصل الى درجة من الحيادية الرهيبة ، فالموجبات هنا تحيدها الموجبات هناك ، والسلبيات تحيدها نظيرتها من السلبيات . واذا نظرنا الى سيناء بنفس النظور فنصل الى درجة من الحيادية والاتزان ، فاذا قال العرب ان سيناء لنا ، فالاسرائيليون يدعون نفس الشىء واذا قالو انها تاريخيا تابعة لمصر ، دلل الاسرائيلون على عكس هذا بالاشارة الى ان سناء كانت تابعة للإمبراطرية العثمانية حتى اواخر القرن التاسع عشر ، وانهم تالآن يمتلكونها . فالرصد البجماتى هو عملية تراكم كمية للمعلومات لا رأ س لها ولا قدم وانما ينتج عنها كوما هائلا لا اتجاه له ، وهو لا اتجاه له لان مضمونه لم يحدد عن طريق العناصر الكيفية الموجوده خارج البناء ذاته . فالصراع العربى الاسرائيلى يتكون عن عرب حقا واسرائيليين ولكن العرب هو اصحاب المنطقة تاريخيا وفعلا وهم الاغلبية الساحقه التى كانت تقطن فى فلسطين ولا يزالون هم الاغلبية الساحقة التى يحيط بفلسطين وتؤيد الفلسطينيين فى مطابهم ، اذ لا يمكن فصل فلسطين عن المنطقه ، ولذا فالاسرلئيليون ليسوا جانبا فى اصراع ونما هم العنصر الدخيل الذى فرضته الامبريالية الغربية . اذا نظرنا للقضية بهذا المنظار التاريخى لاختل التوازن ولتحدد الاتجاه ولاكتسب كم المعلومات البرجماتية رأسا وعقلا واتجاها . ونفس الشىء ينطبق على سيناء ، فلو عدنا لمسار تاريخها ككل لا كتشفنا ان المصريين عبر تاريخهم كانو يهتمون بسيناءويرسلون لها الجيوش والحكام لانها هى درع مصر الشرقى . وحتى حينما كانت سيناء تابعة للامبراطورية العثمانية اكنت مصر هى الاخرى تابعة لنفس الامبراطورية ، والوجود الا سرائيلى لا يتعد ست سنوات وهو يأخذ شكل تحصينات عسكرية لا يمكن ان تقاس بالتاريخ الطويل الممتد . واذا ادخلنا هذه العناصر اختلت الحيادية البرجماتية مرة اخرى ، ولكن البرجماتى لا يفعل ، فهو يريد تحييد الواقع كى يفعل ما يريده معه وكى يفرض عليه الاتجاه الذى يروق له . (وقد ادهش العالم السياسى البرجماتى كيسنجر الكثيرين عن سيناء ومن الذى يمتلكها) . وبذا نجد ان الرصد البرجماتى الموضوعى للواقع لا يختلف عن التحليق المثالى عنه ، فكلاهما الغرض من هو تذويب الواقع ، اوكى نتوخى الدقة ، تذيب اتجاه الواقع حتى يصبح ولا اتجاه له فنفعل به ما نشاء والدارس للدعلية الصهيونية يجد انها تيتند الى تبريرين ، واحد منهما مغال فى المثالية (حق اليهود الأزلى فى العودة ورغبتهم فى ذلك) والآخر عملى مغال فى العملية (سياسة الامر الواقع) ، وكلاهما يتجاهل الوجود

التاريخى لفلسطين وشعبها . وطريقة الطرح الصهيونية – البرجماتية – الاصلح الذى يطمع فى كل شىء ويفتح نيرانه على كل من يجرؤ على الوقوف امامه . يقول الاخلاقيون ان هذه شريعة الغاب ويقول المتفلسفون امثالى انها داروينية نيتشوية ، ويقول النابالم على اجساد الفلسطينيين وخط بارليف انها الجاهلية الاولى عادت من جديد.

والطوباويون – كما يبدو – هم تجسيد البرجماتيه من قديم الازل ، فقد اشتقوا اسمائهم فى بدلية التاريخ من الصراع(الواقعى) والقداسة (المثالية) ، فاسم يسرائيل كما يخبرنا البرجماتى المتصوف يعنى المتصارع مع الرب ، فهو شعب يعيش فى صراع دائم مع الطبيعة القاسية من رمال وتلال ومستنقعات يواجهونها بنفس الايمان الذى يواجهون به الطبيعة البشرية المعادية لهم – طبيعة جيرانهم (من العرب) الذين يكنون الكره لهم وينوون تحطيمهم . ولنلاحظ هنا المساواة البرجماتية بين الانسان والطبيعة واسقاط التاريخ ، وكيف يتحول البشر الاحياء الى جزء من البيئة الجغرافية حتى يسهل اجتثثاهم (وهذه حيلة قديمه استخدمها المستوطنون البيض حتى يبرروا امام ضمائرهم التاريخية الانسانية – بقايا ماضيهم الاوروبى – مسألة ابادة الهنود الحمر) . فالصراع هنا يصبح صراعا ضد جمادات لا حياة فيها ، وبالتالى يسهل اجتثاثها . حينما كان يقف الكابوى امام اعدائه كان يصرعهم ، سواء كانوا من الهنود او من الذئاب او رعاة البقر الآخرين . وكذا الحاتوس (الرائد الصهيونى) ىكان عليه الحرب حتى يمكنه البقاء – مجرد البقاء فى اراضى فلسطين الجرداء " بين شعبها المتسلل خلسة " !

ان البيئة الطبيعية ، بما فى ذلك الانسان ، تقف ضد الحالتوس الذى كان لا يحارب ضد طبيعتها الحجرية المستنقية البرية ، بل ضد طبيعتها الانسانية المفترسة ايضا ! ولكن لم؟ هذا ما يسأله البرجماتى ابدا ، فاليرجماتى رل عملى مرن يقدر ما هو قائم دزن ان يصدع رأسه بالتاريخ ، فعليه ان يذهب للحقائق التى يفرضها بالمسدس ضد الطبيعة الانسانية العنيدة ، حتى تلين وتصبح هى الاخرى برجماتية !

ورؤية كالن للطبيعة البشرية امر مخيف ، فهو مثل هنرى برجسون مطاطا يرى ان لا ثبات فى الطبيعة البشرية ، فشخصية الانسان حدث مستمر وليس مجرد حالة جامدة ، وكل شىء يتغير ويتبدل دائما . ويبدو ان الاسرلئيليين الطيعين المطاطين قد استجابوا للنداءالبرجماتى وتحولواالى جيش محارب عظيم ، اذ يلاحظ كالن بقلب برجماتى مبتهج عسكرة المجتمع الاسرائيلى عسكرة كاملة . ان شعب اسرائيل هو جيش اسرائيل ، وجيش السرائيل هو شهبها والحمد لله ، وهذا ليس بالمعنى المجازى ولكن بالمعنى الحرفى ، فالجيش الاسرائيلى هو المدرسة التى يتعلم فيها الجميع . ونقطة البدء لهذا التعليم العسكرى (العلمى) هو العهد القديم (المثالى) اليست هى اسرائيل – المتصارع مع الرب ؟) ويوزع الجيش " كتبا صغيرة" دينية يستخدمها الجيش فى تدريب الجنود ! ولكن بعد هذا يعطى الجنود مجموعة من الكتب آخرها (ولا ندرى اهو اهما ام لا) مجموعة الخرائط الخاصة بفلسطين / اسرائيل (ونحن لا ندرى ما هذ البلد الغريب ذو الرأسين : فلسطين / اسرائيل !!) تبين حدودها التاريخية ولاركيولوجية ، كما يدرس الجنود جغرافية اسرائيل (هنا سقطت اسرائيل من المتن !) . ويقرر احد مرشدى كالن من الطوباويين ان القرق بين امريكا واسرائيل هو ان الاولى ذات تاريخ صغير وجغرافيا كبيرة ، بينما الثانية هى ان لها تاريخ كبير وجفرافيا صغيرة (هنا سرت الرعدة فى جسدى التاريخى ، فالاتزان

البرجماتى يدعو الى الاتساق بين التاريخ والجغرافيا الى تنغيمهما حتى تصل الى الحدود الآمنة او المقدسة لانها متسقة مع التاريخ المقدس !)

والبرجماتى الصهيونى لا يكتفى بالرصد البرجماتى وانما هو قادر على الالاعيب الديالكتيكية ان كانت فى مجال التبرير – فهو يقرر ان جيش اسرائيل جيش دفاع وحسب والله العظيم – ولكن – ولكن خير دفاع عن فردوس اسرائيل هو الهجوم على جميع الجبهات بالجو والبر والبحر ، ويله من دفاع جهنمى ... وهو يفسر هذه الحقيقة لصغر حجم اسرائيل ، اى يفسها باللجوء للكم (الحقائق الصماء) وليس بسبب وضعها الكيفى (ككيان شاذ يقف ضد اتجاه التاريخ) .

ويلاحظ كالن بقلب برجماتى مرة اخرى ، انه لم يقابل فتى او فتاة لا يتطلع الى الخدمة العسكرية ، كما انه ، هو المرن العملى ، يخبرنا انه يمكن تجنيد الا حتياط فى ساعات قليلة (مقولة برجماتية مشكوك فيها بعد اكتوبر ؟ ٧٥ !) اى ان اسرائيل – " اسرائيل القلعة " كما يسميها عبر الكتاب – على اهبة الاستعداد لمرقاة العدو برا وبحرا وجوا ... ولكننا نكتشف فجأة ان عد اسرائيل العربى ، عدو هزيل، وان الفدائيين ، الذين يشبههم بالديدان ، لم ينجحوا قط فى اقتحام القلعة الاسرائلية .

وفشل العرب – كما يقول الطوباوين للبرجماتى – مسألسة مقررة محتومة ! هل هذا دون كيشوت ام انه سانخو بانزا ، باعنبار ان دونكيشوت شخصية نبيلة جميلة ؟ ولكن حتى نكون عادلين مع اليانكى البرجماتى ، فاننا لا بد واننذكر انه لم يشارك الاسرائيليين ايمانهم بانتصارهم الازلى ، وهذا الخلاف بين الامريكى البرجماتى والطوباويين التلموديين له مغزاه ، وهو خلاف تمتد جذوره للخلاف بين البرجماتية الامريكية والبرجماتية الصهيونية .

الاسرائيليون اذن مرنون واستجابوا لنداء ابرجماتية الحار للتغيير . ولكن ماذا عن العرب ، يرى كالن ان الامل الوحيد هو تغييره ايضا . وكالن لم يفقد المل كلية فينا بعد ، فهو يرى ان العرب قد بدأوا بالفعل فى التغيير بمساعدة الاسرائيليين . ويدلل على هذا ان الاسلام قد اخذ فى الاختفاء او فى التحول الذى هو بمثابة الاختفاء ، وفى احد المناظر العديدة يصف لنا اليانكى الصهيونى كيف يعامل المسؤول الاسرائيللا العرب باحترام وحذر شديدين تماما مثلما يعامل العالم الانثروبولوجى القبيلة البدائية التى يدرسها ، وهو باحترامه وحذه يساعد العرب ليما مساعدة .

ولكن ماذا لو حدث وظهر الانسان العربى الجديد تحت الرعاية الصهيونية ، الن يكون انسانا صهيونيا محاربا لا عقلانيا مؤمنا بقميته وحسب ، يهب ضد اسرائيل ليدق عنقها ، وليلقى بالنابالم على الاطفال ؟ البرجماتى قصير النظر لم يطرح السؤال على نفسه (كتب الكتاب عام ١٩٥٦) ونحن فى عام ١٩٧٣ يمكننا ان نخبر العالم ان الآدام حاداش عرفى (اى آدم الجديد العربى) قد ظهر ولكنه ليس صهيونيا والحمد لله ، فهو لا يزال يحمل الغصن الاخضر بجوار مدفعه ، وهو لا يزال يحاول التحاور العقلانى مع عال برجماتى مجنون!

وعلى الرغم من ان كالن لم يفقد الامل تماما فى تغير الاسباط العربية ، الا اننا لم نل اعجاب هذا البرجماتى . ولقد تعرضت لاهانات عنصرية كثيرة وانا فى الولايات المتحدة من الصهاينة وغيرهم زكثيرا ما كنت افاجأ بأن اجد زميلا لى لا يبادلنى الحديث فجأ لاكتشلفه اننى عربى ، وكنت لا أضيق كثيرا ، فهذه بلدهم

ومن حقهم ان يمارسوا عنفهم وعنصريتهم كيفما شاءوا . وقد اعتعدت لمدة طويلة ان جلدى قد اكتب مناعة ضد الاهانات العنصرية الى ان قرأت كتاب هذا البرجماتى ، وذقت طعم الاهانة مرة اخرى . يؤكد صديقنا انه لا يوجد شعب عربى وانما شعوب متحدثة بالعربية ، وما يسمى بالعروبة ان هو الا رد فعل للنهضة الصهيونية المباركة ، ولم يخلق جامعة الدول العربية سوى الرشاوى البريطانية ، ولا يوحد البلاد العربية سوى كره اسرائيل . ام الفلسطينى فهو ايضا لا وجود له ، فهو خليط لا نهاية له من كل الاجناس . والقومية العرية شىء اصطناعى اصطنعه طبقة " الافندية " وهم يستخدمونها كأداة لتحقيق اغراضهم الكريهة . وكل ما يفعله هؤلاء العرب هو نعليمهم ابنائهم فى المدارس كيف يحاربون الصهاينة ، وكيف يتبعون ذك المهدى المنتظر جمال عبد الناصر .

ولكن نفاجأ بعدم اتساق برجماتى فى كتاب كالن ، اذ نجد انه فجأة يقتبس مثلا انجليزيا يقول اذا ضربت عربيا فى فلسطين ، فأنت ايضا تضرب جده فى الاردن ، ولنلاحظ الانتقاء غير المحايد للمثل الذى يستخده كى يصنف هذا الحيوان العربى ، موضع الدراسة والذى لا يصلح الا كموضوع للضرب . نايها البرجماتى ان ضربت عربيا فى فلسطين ، فأنت تضرب جدهه فى الاردن وأخاه فى مصر وأمه فى الخليج وأخاه فى السودان وأخاه الآخر فى اليمن والجزائر ، فلسنا شعوبا تتحدث العربية كما تدعى، وانما توحدنا لغة وتراث وتاريخ مشترك وبقعة ارض مشتركة وممصالح اقتصادية مشتركة. وماذا كان يضيرك يها البرجماتى ان تتحدث عن تقديم الخير لعربى فى فلسطين بدلا من ضربه ؟ ان لا تعرف السؤال فأنا اعرف الاجابة ، لو عاملت عربيا بالحسنى فى فلسطين لقوبات بالعرفان بالجميل فى بغداد والقاهرة ودمشق . ولكن انى لك ان تختار مثلا كريما طيبا ، انى لك لن تتعامل مع الخير وانت لا يمكنك ان تتعامل الا بأصابعك الخمسة ؟

وحينما يترك كالن هذا المستوى النظرى ويتحدث عن العرب انفسهم وليس العروبة ، والامر لا يختلف كثيرا ، فالعرب دائما يبحثون عن البقشيش ، وحينما يذهب الى حى عربى فهو يلاحظ ان هذا الحى ، قبل مجىء الاسرائليين ، كان ملجأ للعاهرات ومدمنى المخدرات ، وحينما يقدم صورة للعربى ، فأول صورة هى صورة شيخ عربى من الامارات البترولية يضىء قصره بأضواء النيون الحمراء ويستمع للآذان الكريم من جهاز تسجيل . وهناك شيخ قبيلة فى صحراء النقب يلبس هو واولاده ساعات اجنبية لاتبين الوقت ويحملون اقلام حبر فى جاكتات غربية يرتدونها فوق جلاليبهم ، وهم يلبسون احزمة قد غمدوا فيها خناجر : ووظيفة هذا الخليط الانسانى ، تهريب الحشيش . (ولكن لماذا لم يتحدث هذا البرجماتى عن غسان كنفانى او محمود درويش او صديقى تحسين بشير ، كلهم عرب فخورون بعروبتهم واستشهد احدهم ولم تكتب الصحافة الابرجماتية شيئل عن استشهاده ، وما قوله فى العمليات الاستشهادية التى تطلب ذكاءاشديدا وتوقيتا متناهيا فى الدقة ؟ غير هذا العنف موقفه البرجماتى بعض الشىء ؟) .

وحينما يصل هذا البرجماتى لمقدسات الاخرين مثل الحج الى مكة فهو لا يمكنه ان يتخلى عن عنصريته ، فهو يصيف الحجاج الذين يهرولون ويتعثرون نصف عرايا فوق جبل الصفا ، ويقوم جنود ابن سعود بضرب هذه الغوغاء من الحجاج بالسيط حتى يلتزموا النظام اثناء تدافعهم نحو الجحر الاسود ليلمسوه. هذا هو وصف البرجماتى للحج ! وهو وصف لا يتسم بالحيادية البرجماتية !

ولكن لنترك عنصريته قليلا ونرى ماهو الحل البرجماتى الذى يطرحه الفيلسوف اليانكى لقضية فلسطين ، الحل هو ان يتحول الفلسطينى الى " الفلسطينى التائه" : يدفع له بعض المال ويعطى جواز سفر ويصبح العالم كله مجال اختياره ! ولكن اذا كان المجال فسيح الى هذا الحد ، فلم نحرم منه الاسرائيليين ، خاصة وانهم تثبتوا مقدرة على التكيف السريع يفتقدها الفلسطينيون العرب ؟ ولكن البرجماتية فلسفة متعادلة ولا يحسم التعادل الا فوهة المسدس ولانه فى عام ١٩٥٦ كانت فوهة المسدس الاسرائيلى قوية لذا يعطى جواز السفر للفلسطينيين . ولكن الوضع بعد ١٩٧٣ قد تغير قليلا – فهل نقترح بأدب برجماتى عنيف ان يعطى الجواز العالمى للاسرائيليين ؟ ولكن هذه حلول مثالية / عملية لا علاقة لها بالواقع المركب ، هذه هى حلول السوق الرأسمالى وغابة روسو وداروين والمنظمة الصهيونية العالمية !

ان كل صفحة من صفحات كتاب كالن تنطق بالعنف البرجماتى تماما مثل كتابات جيمس فكلاهما ينظر للانسان من منظور داروينى ، وكلاهما يرى الانسان جزءا من بيئة طبيعية مما يسقط التاريخ والاتجاه ، ويحول كل الظواهر الانسانية الى كم ميت (ومن كانت العنصرية الفجة) وفى هذا الاطار يظهر الكاوبوى والحالتوس وتظهر الجيوش والعنف ، وتصبح قوانين الغاب والسوق هى القوانين الوحيدة التى تسود الواقع ، وتظهر التحالفات الامبريالية / الصهيونية .

ولكن يظل هناك فارق جوهرى بين برجماتية جيمس الامريكية ، والبرجماتية الصهيونية . فالبرجماتية الامريكية هى برجماتية غير مبرمجة وغير مثقلة بأى اساطير ، ولذا فهى برجماتية متسقة مع نفسها ، تقف ضد التاريخ ولا تاريخ لها . اما البرجماتية الصهيونية فهى برجماتية مبرمجة مثقلة بالاساطير والتوتريخ المقدسة .

حينما ينظر البرجماتى الامريكى ذو الوجه الاحمر والشعر الذهبى والعيون الخضراء الخالية من الخير والشر والتاريخ الى الدولة الصهيونية فانه سيرى خفيرا يحرس المصالح الامبريالية مفيدا للغاية طالما انه يؤدى غرضه وطالما انه امر ولقع غير مهدد ، ولن تغشى الرؤية اساطير تلمودية عن الوعد الالهى ارض الميعاد . اما الصهيونى فانه يحاول ان يتعامل مع الام الواقع ولكنه ايضا يحاول خلق " حقائق جديدة " (ان اردنا استخدام عبارة ديان الطريقة) صادرة لا عن قراءة للواقع وانما عن قراءة لكتاب اسطورى . ولذا تتحرك الجيوش البرجماتية لكى تؤمن الحدود الواقعيى المثالية لارتس يسرائيل التى وردت لها خريطتان مختلفتان فى التوراة ! لكل هذا نجد ان حدود البرجماتية الاميريكية اكثر اتساعا وتحددا فى ذات الوقت من حدود البرجماتية الصهيونية ، فالاولى يحكمها قانون واقعى ، هو قانون ضيق غبى ، ولكنه قانون مع هذا ، اما البرجماتية الصهيونية فهى مزيج فريد شاذ بين العقليتين العملية والغيبية التلمودية . ولعل هذا يعطينا مؤشرا على نوعية الصراع مع العدو الصضهيونى ، فالفيتناميون قد سالت دماؤهم واسالوا دم الامريكان طيلة عدة سنين الى ان زادت كمية الدماء والخسائر ، فانسحب الاميكيون حينما ادركوا هذه الحيقيقة ، فهم ذهبوا الى فيتنام لا لاسباب اسطورية وانما لاسباب امبريالية واضحة للجميع ، حتى للعمال والمقاتلين الامريكان انفسهم . وكثيرا ما كنت اتحدث معهم (فقد عملت كخفير فى احد المصانع الامريكية لمدة اربع سنوات) فأجدهم يتحدثون ببراءة غير عادية عن اهمية الحرب للاقتاد الرأسمالى حتى تستمر المصانع فى الدوران ، ولكنهم بلا اخلاقيتهم المعهودة كانوا لا يخلصون من هذا الى ضرورة ايقاف الحرب وتغيير النسق الاقتصادى ، وانما كانوا يخلصون الى ضرورة الاستمرار فيها وتصعيدها . ولكنهم مع هذا كانوا لا يتحدثون عن واجبهم فى ادخال الحضارة فى فيتنام او حقهم الالهى

هناك ، ولذا حينما اصبحت الحرب مكلفو استجابت الجماهير الامريكية بسرعة لحركة الاحتجاج . اما فى اطار البرجماتية المغلقة او المبرمجة المغلقة او المبرمجة او التلمودية فالعنف البرجماتى وسياسة فرض الحقائق تستند الى حقوق مقدسة مسبقة لا يمكن حتى النقاش فيها ، ولذا فعلى الرغم من الصـــعوبات التـــى يواجههـــا العـــدو الاسرائيلى وعلى الرغم من الخسائر التى نلحقها به فانه يتسلح خلف سياج أساطيره التلمودية وهى تمده بنـــوع من القوة المؤقتة النابعة من الانفصال عن الواقع .

ويجب ان تتذكر ان البابات السوفيتية كانت على مسافة قصيرة من مخبأ هتلـــر ، والفـــوهرر لا يـــزال يصدر اوامره بحزم للاطفال من اجل مجد النازى !

الباب الثانــــى

عـــالـــم السلـــع الفــردوســـى

١- الخلاص بالسلعة

افرز المجتمع الرأسمالي عديدا من الفلسفات من بينها الفلسفة البرجماتية ، ولكن هذه الفلسفات قد كتب لها الشيوع وذيوع الصيت دون غيرها لانها اثبتت انها خير وسيلة تحافظ بها الرأسمالية الامريكية على اتزان المجتمع وثباته وعلى نقائه من كل التحديات الانسانية التى قد تخل بهذا الاتزان ، ففى مقدور الانسان البرجماتى محدود الرؤية ان يستهلك دون تساؤل ، وان يغير السلع التى يستهلكها وان يقلل ويزيد من كميتها دون احتجاج .وهو لا يستفسر ابدا عما اذا كان هذا الاستهلاك الغبى سيؤدى الى سعادته الفردية ام لا ، فالسعادة الانسانية ، هذه الرؤية المركبة التى تستند الى رؤية متكاملة للطبيعة البشرية ، ليست هى الهدف ، انما الهدف هو النجاح فى التعامل مع الواقع الذى تخلقه وتحدده وتغلفه الاحتكارات ،ثم تبيعه للمواطن الامريكى عن طريق الاذاعة والتلفزيون اللذين لا يرجمان ، فهما لا يكلان ولا يتعبان ، وهما موجدان فى كل مكان .

وقبل ان نعرض لهذا الحديث عنالحضارة الامريكية قد يكون من المفيد ان نذكر نعض الجوانب المميزة لنمط الحياة الامريكية التى تجعل الامريكى فريسة سهلة " للاستهلاكية الامريكية ". فبناء الضاحية الامريكية يجعل الانسان الامريكى يعيش وحيدا فيما يشبه الفردوس الارضى فى منزل من طابقين وعليه ان يقود سيارته ساعة على الاقل كل يوم ليصل الى محل عمله وساعة اخرى ليعود منه (ومن هنا كان من الممكن ان تسبب ازمة الوقود كارثهة لهذا النمط من الحياة المبنى على الاستهلاك). وهو حينما يذهب الى منزله الذى يملكه لن يجلس مع الجيران ليتحدث عن همومه اليومية وانما سيكون مشغولا باعداد طعام العشاء مع زوجته (فهو يعود الساعة الخامسة تقريبا) . كما انه لا توجد علاقة قوية بينه وبين الجيران لان هؤلاء الجيران يتغيرون كل خمس سنوات ، فمجتمع الكفاءة والسيولة البرجماتية مبنى على التغير الدائم ، ولذلك يتغير كل سكان اى جماعة امريكية بمعدل مرة كل خمس سنوات !

والامريكى حينما ينتقل من مدينة الى لاخرى فهو لايستأجر شقة وانما يشترى بيتا وهو لا يفعل ذلك من باب (الفنجرة) وانما هو ضرورة حتمية لان الشقق غالية ومكلفة للغاية ، كما انه كى يحارب هذا التضخم المتزايد ، وبدلا من ان يدفع ايجار شقة مرتفع يفضل ان يدفع اقساط المنزل (والجميع مشغول بدفع اقساط المنزل واقساط السيارة واقساط هذا وذلك) . وبسبب هذا الوضع يصبح اهم الشخصيات فى حياة الامريكان سمسار العقارات . ولذا فحينما ينتقل امريكى من مدينة لاخلرى فانه يتصل اول ما يتصل بسمسار العقارات الذى يساعده فى شراء بيت جديد ويساعده اخر فى بيع بيته القديم . ويقال ان سماسرة العقارات هم منكبار المحرضين على التفرقة العنصرية ، فهم يمكنهم تحقيق ارباح خرافية عن طريق بيع بيت واحد لزنجى فى ضاحية بيضاء فتهبط اسعار المنازل المجاورة فورا ، فيقومون بشرائها بأسعار زهيدة ، ثم يبيعونها بعد ذلك للزنوج بأسعار مرتفعة .

هذا الامريكى الذى لاجيران له ولا معارف ولا اقارب وضحية سمسار العقارات ، عادة ما يستمع الى اذاعة محلية مقصورة على مدينة او ضاحية ، وهى اذاعة تذكلا له انباء الشرق الاوسط فى دقيقة ، ثم النشرة الجوية فى ٤ دقائق ثم تذكر له الاوكازيونات المحلية فى ١٥ دقيقة . وهو ان قرأ جريدة يومية فسيقرأ ايضا جريدة محليةتذكر له انباء العالم فى الصفحة الاولى حتى يرضى ضميره ، ثم يقرأ فى بقية الجريدة عن الاخبار الحيوية مثل من تزوج من مؤخرا ومن حصل على شهادة البكالوريا من ابناء هذه المدينة الامريكية الفاضلة !

وهذه الجرائد ومحطات الاذاعة المحلية خاضعة خضوعا كاملا للرأسمال المحلى ، فهى دور صحفية ومحطات ليس لها سند قومى او عالمى، كما ان المذيعين فيها والكتاب هم من سقط المتاع ولذا يسهل ابتزاز الجميع وفرض اى خط سياسى يلائم الرأسمال المحلى خاصة اذا كان هناك شركة قوية فى هذه المدينة . واذكر جيدا ان فى مدينة نيويورك التى كنت اعيش فيها كانت شركة جونسون للادوية تملي ارادتها على كل اجهزة الاعلام في هذه البلدة نظراً لسطوتها المالية .

هذا الاطار الحضاري قدجعل من الامريكى فريسة سهلة لسعار الحضارة الاستهلاكية . ومن اليسير علينا ان نضرب المثال تلو الآخر على هذه الهستيرية الاستهلاكية المعادية للعقل وللسعادة الانسانية . ولكننا سنكتفى بالاشارة لاهم الامثلة : اعنى مسألة المواصلات الداخلية فى المدن الامريزية . فصناعة السيارات تعتبر من اهم الصناعات على الاطلاق فى الولايات المتحدة ، فهى صلب النظام الاقتصادى الامريكى ، ولذلك فمن مصلحتها ان تمتلك كل اسرة اميكية سيارة ثم سيارتين وان امكن ثلاثا ، على ان تستبدلها كل عام او عامين على الاكثر ، ولتحقيق هذا المثل الاعلى كان لابد وان يختفى نظام المواصلات العامة ، وبالفعل ل توجد مواصلات عامةمن اى نوع فى المدن الامريكية الصغيرة وان وجد خط اتوبيس فهو عادة عاى بعد مسيرة عشرين دقيقة ولا يمر الاتوبيس الا كل ساعة ، ولذلك فالواطن الا مريكى ، الذى يعمل عادة بعيدا عن منزله – كم اشنا من قبل – يضطر لشراء سيارة شاء ام ابى ، فقيرا كان ام موسرا .

وبعد شراء السيارة الاولى تجد الزوجة نفسها حبيسة المنزل بعد ان يذهب الزوج للعمل فتصلح السيارة الثانية فى ضرورة الاولى ، محينما يصل اول الاولاد سن الرشد تجد الاسرة نفسها مضطرة لشراء الثالثة ويقال انه فى لستطاعة الاحتكارات الامريكية ان تصنع سيارة لا تستهلك الا بعد عشرات السنين ، ولكن مثل هذه السيارة لا تنتج لانها قد تصل بالسوق الامريكى الى درجة التشبع وهى نقطة قد تتوقف عندها الدائرة البرجماتية ، لان المستهلك لو تشبع بالسلع وشبع منها فانه قد يفيق وقد يبدأ فى التساؤل عن السعادة والحياة والروح ، وهذا ما لا يمكن للرأمالية الامريكية تحمله . وحتى تضمن الاحتكارات الامريكية ان يظل المواطن الامريطى غارقا فى السلع والمادة وفى حالة غيبوبة انسانية كاملة فانها تطلق عليه سيلا من الاعلانات التلفزيونية الرائعة (والاعلانات التجارية هى بالفعل عروع ما يذيع التلفزيون الامريكى) . انظر مثلا اعلان للاكسهنتى " الرجل المتشدد " يبدأ الاعلان فى قرية فى احدى دول امريكا اللاتينية وقد اعتلى الوجوه القلق وخيم الصمت على المدينة " فالمتشدد " قد وصل . ويذهب الرجل الى احد اكياس القهوة ويتذوق الحبوب الموجودة فيه ثم يتعاطى فنجانا من القهوة وحينما تعلو وجهه ابتسامة الرضا تعم الفرحة ونرقص لجماهير وتبدأ طقوس الحصاد فمندوب شركة سافارين المتشدد قد وافق على شراء المحصول، مما يدل على جودة القهوة التى تبيعها هذه الششركة الحريصة على مصالح المستهلكين . او انظر اعلا نات السيارات المختلفة : تسير عربة جميلة وتخرج منها فتاة رائعة الحسن وتطلب منك شرائها (السيارة – الفتاة بالطبع) ، فان لم تستجب لهذه الدعوة فالاعلان التالىكفيل باقناعك اذ ان القوات المسلحة لشركة شيفرولية تسير على الشاشة فى عظمة وجلال يدلان على عظمة هذه السيارة ومن الخير لك الاستسلام ، وان كنت ثوريا فأنت مدعو للانضمام فورا لصفوف ثورة الدودج فلقد سئمنا الشيفروليه واشباه السيارات . ولكن ماذا لو كنت فقيرا ذا جيوب مثقوبة ؟ لا داعى للقلق فصديقك ذو الابتسلمة العريضة فى بنك نيويورك للقروض سيساعد ، وكل ما عليك ان توقع على ورقة بيضاء صغيرة فتحصل على مفتاح السعادة والعربة . وان دققت النظر فى هذه الورقة البيضاء الصغيرة لاكتشفت انه عليك ان ترهن منزلك

واولادك وزوجتك وذاتك وعربتك الجديدة فى مقابل هذا ، فضلا عن ان سعر الفائدة ليس ٤% كما تقول اللافتة العريضة لانه بالحساب المركب يصل الى اضعاف اضعاف ذلك . ولكن الابتسامة العريضة على وجه صـديقك اياه تنسيك كل الهموم والمخاوف . فان انتهيت من طوفان السيارات اكتسحك طوفان السلع الاخرى ... معجون اسنان ، صابون للبلاط انواع جذابة من المكرونة والعطور والميـاة الغازيـة والملابـس اداخليـة والاحذيـة والشكولاتة . هذا الركام يمكن ان يزول لو توقف الانسان الامريكى واو للحظة واحدة ليتساءل عن جدوى كـل هذا ، ولكنه بالطبع لا يفعل لانه انسان برجماتى ناجح ، يجيد التعامل مع الواقع .

وعالم السلع لا يغزو الانسان الامريكى من الخارج وحسب ، بل يغزوه ويقمع انسانيته من الـداخل . والغزو اداخلى يتمثل فى مظاهرة عديدة اهمها مصادرة الجنس لحساب الاحتكارات الرأسمالية . وأنـا هنـا لا واجه نقداً لما يسمي باباحية المجتمع الامريكي (فهو في تصوري ليس مجتمعاً اباحياً منحلاً بالمعني التقليدى) . كما انني لا اشير إلي انتشار الأفلام الجنس التي تعرض في كل الاماكن بما في ذلك الضواحي التـي تقطنهـا الاسر البرجوازية المحافظة (وهذه ظاهرة جديدة كل الجدة) ، وإنما اشير إلي اباحية من نوع جديـد وخطيـر .فالاباحية القديمة تفترض أن الجنس نشاط انساني وأنه يمكن استغلاله لهذا السبب عن طريق عرضه بطريقـة مغرية يسيل لها لعاب الذئاب والملائكة ، ولكن الاباحية الجديدة اباحية ديمقراطية " عملية " تفترض ان الجـنس طاقة محايدة يمكن استخدامها في التحكم في هذه الوحدة الاستهلاكية التي كانت الفلسفة القديمـة تطلـق عليهـا اصطلاح " انسان " . واختيار الجنس كوسيلة للتحكم في الانسان يدل على ذكاء وفطنة ، فالجنس نشاط بيولوجي حتمي ولكنه في الوقت ذاته له بعد اجتماعي ، وبتأكيد الجانب البيولوجي على حساب الجانب الاجتماعي (دون الغائه كلية) يخلق المجتمع الرأسمالي الخلطة السحرية والتوازن المنشود ، فانت قد تسلك سلوكاً اجتماعياً ولكن سلوكك ستحدده اعتبارات بيولوجية بسيطة ومحددة . انظر مثلا إلأي كريم الحلاقة ماركة كـذا ، أن اسـتخدامه وقعت كل الفاتنات في شباكك ، اما كريم الشعر هذا فسحره لا يقاوم ، وانت ياسيدتي اذا شربت هـذا الـدواء "جريتول" (الذي اظهر التقارير الطبية فيما بعد ان مضاره اكثر من نفعه ، فانت ستعيشين جاذبية جنسـية بعـد شربه ، وانت ايها العجوز الكركوب لم لا ترتدي باروكة او تصبغ شعرك او تفرك جلدك او تقصر بنطلونـك او تطوله . اختر ما تشاء من السلع وكله في سبيل الحيوية والبعث الجنسي ، ولكنه بعث جنسي لا علاقة له بالحياة او الحب او الزواج او الطلاق او حتى ابليس او بروميثيوس ، فهو بعث بيولوجي مجرد يدور في فراغ حتمـي لا نهائي .

الحضارة الامريكية اذن حضارة ناجحة للغاية على المستوي الانتاجي والمـادي ، حققـت السـيطرة الكاملة على الانسان الامريكي من الداخل والخارج ووصلت الى الاتزان الذى يضمن لها الاستمرار والاتسـاع المنضبط . وهي حضارة قد يقدر لها السيطرة على المجتمعات الرأسمالية الاخرى ذات التاريخ العريق والتراث القومي والديني الفعال . بل انني اعتقد ان المجتمعات الاشتراكية مهددة بهذا الغزو الحضاري الامريكي اكثر من غيرها لانها مجتمعات قد قطعت صلتها بتراثها القومي والديني وخلقت فراغاً حضارياً لا يمكن ان تزدهر فيـه سوي القيم المادية الامريكية ، خاصة وان هذه المجتمعات الاشتراكية لا تزال تقوم نجاحها وانجازاتهـا بعـايير مادية ميكانيكية غير انسانية مثل زيادة ةحجم الانتاج وزيادة انتاج الصلب والفحـم والصـابون . ان الحضـارة الراسمالية الامريكية هي حضارة الماديين النفعيين ، حضارة لوك وهوبر وبنتام وديوي ، حضارى تري الانسان على انه كمية من الاحتياجات من السهل ارضائها . والحضارات الاشتراكية باستمرارها فـي التركيـز علـى

الانتاج دون ذكر للهدف الانساني وباهمالها خلق وعي تاريخي انساني عند المواطنين ، وبحرمانهم من المشاركة الفعلية في ادار المجتمع قد تقع في براثن هذه الرؤية النفعية المعادية للفكر والانسان وقد تظل قابعة في عالم الضرورة والكم .

وقد تنبه اليسار الجديد لخطورة الراسمالية الامريكية فهو في نقده لها لا يركز على استغلاليتها او عدم كفاءتها الانتاجية لانها ليست مستغلة بالمعني التقليدي كما ان كفاءتها مشهود لها من الجميع ، وانما ينصب التركيز على استهلاكيتها العمياء التي تغرق الذات ، بل ان بعض الجماعات اليسارية لا تستخدم اصطلاح " الراسمالية " الان وتستخدم بدلاً منه اصطلاح " الاستهلاكية " باعتبار ان ما يهدد العامل الامريكي الان ليس قلة السلع بل وفرتها ، والوعي الزائف الذي تنتجه هذه الوفرة .

واليسار الجديد لم يجد ابدا في رؤيته الجديدة عن الفلسفة الماركسية ، فنقد ماركس للراسمالية لم ينصب على استغلاليتها الاقتصادية بقدر تركيزه على سطحيتها المادية وحتميتها الاقتصادية وتحويلها الانسان الي شئ والشئ الي وثن . ان الراسملية لابد وان تؤدي الي اغتراب الانسان والي انحرافه عن جوهره الانساني " ففي النظام الراسمالي لا يوجد الانتاج من اجل العامل وانما يوجدالعامل من اجل الانتاج " ، ولذلك يكون هدف الثورة الحقيقي ليس مجرد الغاء الملكية الفردية (رغم اهمية هذه الخطوة) وانما اعادة تنظيم المجتمع الانساني بطريقة تضمن تحقيق الانتقال من عالم الضرورة والانتاج والكم الي عالم الحرية والانسان والكيف . ولكن هذا التصور يفترض وجود رؤية للانسان الحقيقي ولحاجلته الحقيقة (في مقابل الانسان الاستهلاكي او الاقتصادي وحاجاته المادية الزائفة) ، فأي فكر هيوماني انساني ينطلق من رؤية محددة للطبيعة البشرية ولامكانياتها المبعثرة او غير المتحققة ، وللهيومانية الماركسية رؤيتها وان كانت تختلف عما سبقتها من مذاهب في ان رؤيتها للانسان ولمجتمع المستقبل تستند الي تحليل تاريخي واجتماعي ولا تنطلق من مجرد احلام طوباوية فروسية مجردة .

واهم سمات " الطبيعة البشرية " حسب تصور ماركس تظهر في محاولته التمييز بين العمل الانساني وعمل المخلوقات الطبيعية الاخرى . فالعمل الانساني عمل واع عقلاني خلاق ، ولهذا يكون اسوا منزل يشيده ارداً مهندس هو في الواقع اعظم من كل الخلايا التي تبنيها اعظم نحلة ! ان الاشتراكية تصبح فلسفة انسانية حينما تعيد توجيه التقدم التكنولوجي بشكل واع عقلاني خلاق ، اي حينما تجعل العمل الانساني يعبر عن نفسه وعن امكانياته تعبيراً حقيقياً ، اما الاشتراكية التي تلغي الملكية الفردية دون ان تغير في بنية المجتمع والتي قد تثيري البروليتاريا ثم تغرقها في فردوس السلع انما هي اشتراكية زائفة غارقة غ\في عالم الضرورة والكم . وهذه ليست دعوة للتقشق فالانسان بدون السلع يصبح عبداً للضرورة ، ولكنها دعوة الي عدم الخلط بين عالمين مختلفين والا نعتقد انه في وفرة الكم السعادة والهناء .

اليسار الجديد لم يحد كثيراً عن فكرة ماركس وان كان قد استفاد منه طريقة تنم عن اصالته ، ولكنه مع ذلك يسار مقتت ينقصه البرنامج السياسي والايديولوجية المتكاملة ، ولذلك فهو رغم أنفه يجد نفسه منصرفاً الي الجزئيات دون الكليات ، تستغرقه الاحداث اليومية الايديولوجي الذي خلقته الراسمالية والحضارة الامريكية . واليسار الامريكي لا ذنب له هذا الفراغ هو الحقيقة الحضارية التي لا يملك لها قبولاً او رفضاً . كما ان اليساريين يحاولون تجنيد المواطن الامريكي البرجماتي فيضطرون الي مسايرته والي استخدام مصطلحه بل والي رؤية الامور من وجهة نظره على امل استقطابه . ولكن الامر ينتهي بمعظم هذه الحركات اليسارية اما

الي الاقلال من جرعة الراديكالية وزيادة جرعة الاصلاحية البرجمالية (كما حدث لجماعة الفهود السوداء حين قررت الاستغناء عن السلاح وقبول الطرق اليمقراطية كوسيلة لتحقيق اهدافها ومثلها) . وقد يتحول الثوري الي هيبي او فرد متمرد يقوم بأفعال ثورية مباشرة مثل تدمير بنك او منزل كما فعل اعضاء جماعة ويزرمان . ولكن الثوري اذا تقبل فكرة " الفعل المباشر " فانه يكون قد حول كا افعاله الي ردود افعال وفقد الرؤية والاستراتيجية وضاع في متاهات تعرف الاحتكارات مداخلها ومخارجها لانها احتكارات يساندها أقوى جهاز تنفيذى واذكي جهاز قمع عرفه التاريخ . بل والاكثر من هذا ان تبني سياسة " الفعل المباشر " هو سقوط في المنطق " الفردوسي " الذي يحاول الوصول الي الحرية من خلال التعامل مع قوانين الضرورة ، وانما يتجاهلها ويتجاهل حدود الوجود الانساني التاريخية .

٢ــ الهيبي في الفردوس

في عالم السلع الامريكية والاشياء التي لا حصر لها والخواء الروحي الذي لا قاع له ، لم يكن من الممكن ان يستمر الانسان الامريكي في سلبيته وعزلته ، فالانسان ، روسيا كان ام امريكيا ، حيوان اجتماعي بطبعه ، عقله خلاق لا يقبل القهر في صمت وسكينة .

ولذلك مهما بلغ البطش من قسوة والقمع من ضراوة فالانسان لا يعدم ان يجد شكلاً ما من اشكال التمرد وقد اشرنا من قبل الي ان الاحتجاج السياسي في امريكا قد يأخذ شكلاً سياسياً شبه منظم كما هو الحال مع اليسار الجديد ، ولكنه في كثير من الاحيان يأخذ شكل احتجاج عاطفي روحي فردي عائم غائم ، لا يستند الي تحليل للواقع او الي موقف من التاريخ ، وهذه هي طبيعة التمرد الهيبي ضد الراسمالية الاستهلاكية .

فثورة الهيبي ثورة فردية محضة ، اذ يرفض المتمرد المجتمع وحدوده ومقدساته ، ويدبر ظهره لفكرة النجاح على الطريقة البورجوازية ويقرر ان يفشل ، ففي فشله ضرب من تحد لكل اهداف المجتمع الراسمالي واماله . ومن المعروف ان الاسطورة الاساسية السائدة في المجتمعات البورجوازية هي اسطورة " الانسان العصامي الناجح " الذي يكافح ضد كل العوائق والظروف ، ويعمل بالنهار ويدرس بالليل ، يحب والديه وزوجته واولاده ، ويذهب الي الكنيسة يوم الاحد ، وهو دون شك مقتصد لا ينفق الا قيما يفيد . وتنتهي الاسطورة بتتويج البطل مليونيرا يشار اليه بالبنان ، او كما يقول المثل الامريكي "من الثياب البالية الي الثروة الطائلة " . الهيبي يفعل عكس ذلك بالضبط ، فهو عادة من عائلة موسرة يسرت لهخ سبل التعلم ومهدت له طرق النجاح في صبر واناة ، وخلقت له البيئة الصالحة الهادئة التي لا يعكر صفوها شئ ، فيترك صاحبنا الثروة الطائلة ويهجر المدرسة ، واذا ما وصلته حوالة بريدية من اسرته الحزينة فهو ينفقها على اصدقائه دون تدبر او تفكير ، ثم يخلع ملابسه النظيفة ويرتدي الثياب البالية ويمشي حافياً يفترش الارض ويلتحف اي منزل خرب يصادفه في طريقه . " من الثروة الطائلة الي الثياب البالية " ــ وقل موتوا بغيظكم ايها البورجوازيون المحترمون ! ان الهيبي هو تجسيد لاسطورة " الانسان الفاشل " ولذلك فهو الرفض المحسوس والشخصي لاسطورة " الانسان العصامي " ولكل ما ترمز له من تقديس للملكية الفردية ونكر ان السعادة الانسانية (والسعادة الانسانية تختلف عن الملذات المادية الاستهلاكية التي يشجعها المجتمع الامريكي) . اذا كان التفوق عند الانسان الناجح هو الاستهلاك الذى لا ضمير له ولاروح ، فالهيبى يحيا حياة تجعل الاستهلاك وكل السلع الرأمالية بل وكل الانجازات التكنولوجية امور ليست ذات بال . واذا كان العصامى انسانا مدبرا يحسب حساب كل شىء ويحترم

الواقع الموضوعى البورجوازى ، فالهيبى يتعاطى المخدرات بشراهة لانها تمنحه الرؤى المختلفة كيفيا عن هذا الواقع الكريه . وقد يحتج بأن اليسكى الفاخر يمنح المرء مثل هذا الرؤى ، ولكن الرد الهيبى هو ان الويسكى سلعة رأسمالية وتجرعه يعنى دخول الدائرة الاستهلاكية مرة اخرى ،اما الحشيش والافيون والكوكايين والهروين والال اس دى التى يتعاطاها الآن ما يزيد عن ٦٠% من الشباب الامريكى فأمرها جد مختلف . واذا كانت حياة الانسان العصامى فردية خالية من الطقوس والمعنى ، فحياة الهيبى جماعية يحكمها تفكير قبلى وآلاف الطقوس التى تضفى معنى على حياتهم ، طقوس تذكرنا بالعبادات القديمة قبل ظهور التجارة والصناعة . وقد اعطانا فيلم "وود ستوك " صورة واضحة لهذه القبيلة الجديدة وهذه الرغبة فى فقدان الذات الفردية فى محيط البشر وفى الطقوس القبلية .

ولكن الهيبى على الرغم من ذلك يظل فردا وجزيرة ، يطفو من مكان لمكان دون هدف واضح او مستتر ، كما ان شأنه شأن " العصامى " الذى لا تراث له ولا تاريخ ولا تقاليد ولا وعى ، يعيش من يوم الى يوم ومن ساعة الى ساعة ،كم أنه لا يرتبط بأى تنظيم او ايدولوجية ، بل يظل يبحث عن النشوة ، وعن التنفيس عن نفسه . وعلى كل حال لا يمكن انكار الفارق بين السكر عن طريق الكحولات ، وفقدان العى عن طريق المخدرات ، والغيبوبة عن طريق اعلانات التليفزيون ليس جوهريا الى هذه الدرجة ؟

ومما قد يكون له دلالته ان كلا من " اسطورة العصامى " و " اسطورة الهيبى " جزء من التراث الامريكى ، فالكاوبوى لا يختلف فى كثير من الوجوه عن الهيبى ، فهو يعيش حياة رعوية بسيطة مع اخوانه من رعاة البقر ، لا يستهلك الكثير ولا يتعامل مع المجتمع الفاسد ، وعلى الرغم مما فى حياته من جماعية فهو فرد لا يرتبط بأى شيء لا بأسرة او زوجة او حبية ، اذعليه ان ينتقل من مكان لآخر .

واذا ما نظرنا الى التراث الادبى الامريكى فاننا نكتشف ان والت ويتمان كان هيبيا من الدرجة الاولى ، فقصيدته الشهيرة " اغنية نفسى " تحتفى بذات الشاعر السلبية التى تحب الخير والشر والتى تقبل كل شىء دون تمييز والتى تعشق ان تطفو مع الناس فى المدينة . وهناك ايضا تلك الهيبية البيويتارنية الشاعرة اميلى ديكنسون التى اعتزلت الناس وترتدت ثوبا ابيض وسكنت فى عالم مأهول بالمجردات الميتافيزيقية ، وهناك هنرى دافيد ثورو الذى رفض ان يدفع الضرائب المقررة عليه احتجاجا على محاولة القوات الامريكية ضم تكساس (التى كانت لا تزال تابعة للمكسيك حتى ذلك الوقت) ، وق آثر ان يدخل السجن على ان يدفع الضريبة ، ثم حمل ادواته الزراعية ومكث فى الغابة بجوار بحيرة (ولدن) لمدة عامين ليكتشف ذاته وليثبت للعالم انه كفرد فيه الكفلية والبداية والنهاية .

ولكن حركة الهيبى كأى حركة غير منظمة لا تستند الى قوى اجتماعية واضحة ، تتحول الى موضة ثم تختفى بعد ان تقيم الدنيا وتشغل الناس بضعة شهور او اعوام . وهذا هو ما حدث بالفعل فى حركة الهيبى (التى لم يبقى لها من اثرفى الولايات المتحدة) . والهيبى لم يكن ينشد التغيير الاجتماعى ، لما كان باحثا عن النشوة الفردية ، والاحساس بالنشوة احساس مؤقت يخلف الشعور بالمرارة والقلق والملل ،على عكس التجارب الانسانية التى يعيشها الانسان ،فالتجربة ، بما فى ذلك التجارب المأساوية ، خاضعة للتقنين والفهم وفى نهاية الامر للتصنيف والاستيعاب ، ولن التجارب لها محتوى انسانى واضح فانه يمكن نلها للاخرين . وقد يصاحب بعض التجارب الانسانية احساسا بالنشوة مثل تجربة الحب وتجربة التفكير فى الخالق ، ولكن النشوة قاصرة

على من يحس بها ولا تستمر الى وقت طويل ، ولكل هذا فهى لا يمكن ان تفهم وانما يمكن ان تمارس وحسب وتظلمحصورة فى ذاتها ، محتفظة بطابعها الفردى وبارتباطها بالآن والهنا . وهى بهذا تذكرنا بمنطق " الفردوس الآن " الذى يحاول الغاء جميع التناقضات الاجتماعية والتاريخية لتحقيق النشوة المباشرة والدائمة .

ولان هدف الهيبى هو الانتشاء وليس التغيير الاجتماعى نجد نها تنمى احساسا عاما لدى التابعين يالانتماء الى كيان ما (الكومون او الكون) دون تقويم لمحتوى ودلالة هذا الانتماء ، وهى ايضا تركز على الطقوس القبلية التى تساعد المريد على ان يفقد ذاتيته الاجتماعية المحسوسة ويكتسب بدلا منها ذاتية مجردة منغلقة على نفسها مثل ذاتية المتصوفين . وهى اخيرا(شأنها فى هذا شأن المجتمع الاستهلاكى) ترتكز على الجنس باعتباره نشاطا بيلوجيا محضا وطريقا مختصرا الى النشوة الفردوسية الطبيعية (نسبة الى الطبيعة والفطرة) التى لا يعقبها اية علاقات اجتماعية او التزامات انسانية من اى نوع (مثل الزواج او حتى الحب لمدة تزيد على ٢٤ ساعة) . وفى المسرحية الغنائية " هير – شعر " التى تعبر عن حساسية الهيبى تختفى الاغنيات الواحدة تلو الاخرى بعالم انشوة الجنسية التى تغنى الوعى والذات وتجعل المدن والتاريخ والقلق والادب والاسلحة الذرية امورا تافهةيمكن تجاهلها وتناسيها .

وانتسار المخدرات دليل قاطع على سيطرة الحساسية الفردوسية ، فالمخدرات هى خير سبيل الى النشوة دون اى معايشة للواقع ، وهى خير طريق الى الفردوس الوهمى التى لا تعكر صفوه اية تناقضات ، وهى الطريق الى الشكل دون المحتوى ، فالمرء الواقع تحت تأثير المخدرات قد يشاهد اشكالا رائعة الجمال، وقد يبصر الاشياء المحيطة به وقد تضخمت بشكل مضحك ، وقد يرى العلاقات بين الاشياء فى ضوء جديد ، ولكنها اشكال بلا محتوى وبلا مضمون انسانى او اخلاقى ، ولذلك فهى تبقى عصية على الفهم والتفسير . وسيطرة حساسية الفردوس تظهر ايضا فى التيار الادبى الامريكى الذى ينادى بانه لا جدوى من تقويم الفن او حتى محاولة فهمه لان الهدف الاساسى من قراءة العمل الادبى هو تجربة بشكل مباشر دون تدخل الوعى الانسانى . فالفن – حسب رأى سوزان سونتاج وهى احد النقاد الامريكيين المحدثين _ " ان هو الا شكل من اشكال السحر ووسيلة من وسائل " الطقوس " ، والعمل الفنى مثل العالم لا محتةى له اذ انه يوجد فى ذاته ولذاته (تماما مثل النشوة ومثل اى " موضوع " او " شىء " قبل ان يشكله الادراك الا نسانى) ، وهى تعرف الجمال بأنه يتمثل فى وجود " ماكينة خياطة مع مظلة على مائدة تشريح بالمصادفة المحضة اى ان الجمال ليس نتاج تجربة واعية يوم صاحبها بتقويمها وتشكيلها ونقلها للآخرين انا هو شىء يوجد بالمصادفة ودون تدخل الارادة الانسانية ، تماما مثل الاشياء المضحكة التى يراها الانسان الواقع تحت تأثير المخدر ، ولذلك تكزن مهمة الناقد ان يمارس هو الآخر احساسا غائما بالنشوة لا ان يفسر ويشرح ويقوم . وهى فى مطلع كتابها المعنون ضد التفسير تتحدث عن حالة البراءة الاولى الفردوسية قبل ظهور التاريخ والةعى ، قبل لن يحتاج الفن او تفسير او تبرير ، فاستجابة الملتقى آنئذ كانت دائما استجابة مباشرة غير واعية ، وهل يملك المرء الواقع تحت سلطان السحر ان يفعل شيئا سوى ان يتحرك حسب ماتمليه علية ارادة الساحر الهيبة ؟ وفى فيلم " القط فريتز " ثمة منظر طريف يصور لنا هذه الاستجابة الماشرة للشكل المحض ، فاحدى الشخصيات تقرأ كامات القاموس الواحدة تلو الاخرى بصوت عال وبقية الحيوانات المنتشية تهلل وتصفق اعجابا ، لان كلمة القاموس المجردة التى لا يحدد معناها أى سياق هى خير الاعمال الفنية فهى لا تنقل لنا شيئا . والدعوة لجعل الفن نهاية فى حد ذاته ، اذا كانت منطقية

مع نفسها ، لابد وان تصل الى هذه الدرجة فمنتهى التجرد هو منتهى الجمال ، بل يصبح الصمت هو التجربة الجمالية الحقيقية الوحيدة لان الصمت هو التجرد من المحتوى والمضمون .

حقا ان الصمت هو قدس الاقداس للمنتشى الذى يفقد عقله ، اما آدم فقد كان عليه ان يتعلم الاسماء كلها كى يصبح انسانا سويا تخر له الملائكة ساجدة .

٣- أهل يسوع او مسيحيو الطرقات

من اهم الحركات " الفردوسية " السائدة الان فى الولايات المتحدة حركة تضم قطاعات كبيرة من الشباب المتعلو فى الولايات المتحدة تعرف باسم " اهل يسوع " او " مسيحيو الطرقات " (ويطلق عليهم المجتمع اسم " شواذ يسوع ") . وهذه الحركة خليط غريب من من المسيحية والهيبية ، فأهل يسوع مثل الهيبى لا يضمهم تنظيم واحد او عدة تنظيمات ، ولنما يجتمعون فى منازل وجماعات يطلق عليها اسم " البيوت المسيحية " . وهم يرتدون اردية طقوسية ولا يهتمون كثيرا بمظهرهم الخارجى ويطلقون لحاهم وشعورهم (مما يذكر المرء بالصورة التقليدية للهيبى والمسيح فى نفس الوقت) . كما انهم لا ينتمون الى كنيسة بالذات بل تجد بينهم بروتستانت برسبيتريان وبروتستانت موحدين وكاثوليك بل واحيانا يهود .

واهل يسوع متمردون لا على المجتمع المادى الامريكى فحسب بل على المؤسسات الدينية التقليدية ايضا التى لا تختلف رؤيتها كثيرا على الرؤية السائدة فى المجتمع (ومن هنا كانت تسميتهم ب " الاهل " تمييزا لهم عن " الشعب " وهى الترجمة تصطلاحية التقليدية لكلمة بيبول) . وهم فى تمردهم يحاولون ان يبثوا الحياة فى صلواتهم وعباداتهم حتى تختلف عن الصلوات والعبادات التقليدية التى فقدت معناها وتحولت الى طقوس فارغة ، فبدلا من قراءة الاناشيد الدينية التقليدية من كتاب رشيق مغلف بالجلد المذهب يفضل اهل يسوع الغناء الحر الذى لا يخضع لقاعدة او رابط . ولان الصلاة نابعة من الروح كثيرا ما ينخرط بعض المصلين فجأة فى البكاء او يطلقون بغته صرخات الفرح او يغمغمون عبارات غير مفهومة اقرب الى لغة الواصلين ومن رفعت عنهم الحجب . وفى الخلفية يعزف الاغن موسيقى دينية لا ينصت اليها احد وان كانت تضفى على الصلاة طابعا دينيا عميقا . وبعد الصلاة تدور سلة النذور والهبات بين المصلين ، ويطلب من القادرين ان يدفعوا مما معهم ومن المعوزين ان يأخذوا ما ما قد يسد حاجاتهم ، ثم يستمر الغناء عن الحب والسلام والصداقة الى ان ينصرف كل الى حاله او ينام فى مكانه ان شاء . والصلاة تعقد فى اى مكان أ فا لبيوت المسيحية هى منازل للسكنى وكنيسة للصلاة معيادة لعلاج مدمنى المخدرات . واقتصاديتها بسيطة للغاية ، فاعضاؤها يعيشون على الصدقات التى تأتيهم على شكل نقود او ملابس قديمة مستعملة ، كما انهم عادة ما يتناولون وجبة واحدة فى اليوم تتكون عادة من البقول (وهى من اهل يسوع) ، واخبرنى انه لم يذق طعم اللبن زهاء نصف عام ، وهذا امر غير طبيعى النتة بالمقاييس الامريكية .

وحركات البعث الدينى غريبة على الحضارة الامريكية ، فالولايات المتحدة بدأت ككومنولث دينى وتخلل تاريخها مصلحون دينيون عديدون من اشهرهم جوناثان ادواردز الذى حاول ان يعيد بعث العقلية البيوريتانية المتزمتة فى القرن الثامن عشر ، كما ان السنين القليلة الماضية رأت واعظين مثل بيللى جراهام (واعظ الرئيس نيكسون المفضل) حاولوا بعث حرارة الايمان الدينى . ولكن كل هذه الحركات ، على عكس حركة الاصلاح الدينى فى عصر النهضة ، ليس لها طابع طبقى او اجتماعى واضح او مستتر ، وليس لها اية

ابعاد راديكالية حتى بامقاييس ، فهى لا تطرح رؤية متكاملة مختلفة عن الرؤية الدينية السائدة كما فعل مـــارتن لوثر ، على سبيل المثال ، الذى بشر بطريقة فردية للخلاص تختلف فى بنيتها ومحتواها عن مفــاهيم العصـــور الوسطى الكاثوليكية . ولكن رؤية لوثر رغم صبغتها الدينية كانت فى صميمها رؤية اجتماعية تعبر عــن قــوى حقيقية فى المجتمع ، ولذلك قدر لحركته الفعالية والاستمرار ، اما معظم حركـــات البعــث الدينيـــة تلامريكيـــة فهلاقتها بالواقع واهية او منعدمة لا تقدم رؤية متكاملة مكتفية بتقديم الحلول العاطفية مثل " الحب" و" التفـــاهم " دواء شاف لامراض جديدة محل اسطورة " الانسان العصامى " الضيقة واسطورة " الهيبى الفاشل " المخربـــة ، ولذلك فهم يعودونلفكرة " الانسان المسيحى فى بساطته الاولى " وهم فى هـــذا يـــدخلون الحضــــارة الامريكيـــة الاستهلاكية من اوسع ابوابها ، باب الرفض الشامل للتاريخ والواقع الاجتماعى ، والرفض الكامل يختلف عـــن محاولة التغيير الثورى فالوجدان الثورى وجدان اجتماعى تاريخى يحاول ان يكتشف ما هو كامن فى المجتمـــع ويقدم رؤى هى فى صميمها " امكانيات حقيقية " لا يرض حلولا " فردوسية " من خارجه .

ورفض أهل ييسوع للتاريخ ولواقع يظهر فى الحرفية الكاملة فى تفسير الانجيل ، فحينما ســـألت ابـــن صديقى ان يلخص لى عقيدته قال لى انها الايمان بان الانجيل هو كلمة الرب وان من واجب المسيحين نشـــرها بين الكفار دون محاولة تفسيرها (ضد التفسير مرة اخرى) . ثم دخل فى متاهات جديدة عن عـــودة المســـيح الثانية قريبة يصبح كل شىء واضحا للغاية لا يحتاج تفسيرع الى عناء كبير ، بل ان كل التفاصيل تصبح عديمة الأهمية . ومن ضمن علامات الساعة انتشار الفساد بالطبع ودخول عشر دول السوق االاوروبية المشـــتركة ، (واستشهد ابن صديقى بالانجيل فى هذا الشأن) وانشاء الدولة اليهودية فى ارض الميعاد لانها تعنى تجميع اليهود من اطراف الارض اعدادهم لهدايتهم جميعا للدين المسيحى تمهيدا لتحقيق " الفردوس الان " . وحاولت ان ابين لمحدثى قصور رؤيته الميتافيزيقية الثابتة عن طريق تنبيهه لبعض الاعتبارات النسبية والتاريخية ، فسألته عـــن جدوى هداية الكفار فى هذا الوقت والذى يهرق فيه الاحتكارات الرأسمالية انسانية المـــواطنين الامـــريكيين ، المؤمن منهم والكافر ! ثم سألته فيم تأكده ان دولة اسرائيل الحالية هى دولة يهودية اخرى بعد ان تزول هـــذه ! ولكنه كان مطمئنا الى رؤيته الثابتة كل تلاطمئنان واثقا بها كل الثقة ، واستشهد مرة اخرى بالانجيل دون تردد.

ويبدو ان الطمأنينة الداخلية او النشوة الدينية التىيحققها الايمان والحرفى هو ما ينشده ، اهل ، يسوع ، ولذلك فتجربتهم الدينية الجديدة لا ينتج عنها اية استثارة فكرية ، بل يظل المؤمن المنتشى يدور حول نفســـه دون ان يدخل فى علاقة حقيقية مع الواقع او حتى مع نفسه ، وهذا الاغراق فى الذاتية يتضح فى الاشكال المختلفـــة التى تأخذها العبادة فى هذه الكنائس ، فقد انتشر ما يسمى " بصلوات اللمس " بحيث تمسك بيـــد مـــن جـــوارك وتغمض عينيك وتفكر فى اى شىء يطرأ على ذهنك ثم تخبر كل الحاضرين به " فيشـــاركونك " فـــى آلامـــك وامالك يفررحون لفرحك ويحزنون لحزنك وهكذا ، والمفروض ان الاتصال الجسدى يزيد من حرارة المشاركة ولكنها تظل على الرغم من ذلك مشاركة لفظية محضه تذكر المرء بالتقارير العاطفية المطبوعة اياهـــا ومذيعـــة التليفزيون الجالسة داخل الشاشة ترسل لك بتمنياتها الحارة وهى فى حجرتها المكيفة بالهواء . فكنائس اللمس لا تكون مجموعات بشرية متماسكة بل هى أقرب الى الجلسات العلاجية النفسية

وقد تأخذ العبادة شكل التداعى الحر حيث يجلس المصلون يحكى كل عما يقلق بالـــه ، فيحـــاول بقيـــة الحاضرين بكل حرارة واخلاص " مساعدته " فى حل مشاكله . وقد ذهبت مع ابن صديقى لحضور احدى هـــذه

الجلسات وحاولت مرة اخرى لن ادخل عنصرا سياسيا تاريخيا على هذه الجلسة الروحيــة النفســية فــاخبرت المصلين ان مشكلتى تتلخص فى اننى مصرى عربى يعانى من العدوان الاشرائيلى على فلسطين ومصر ، وان هذا هو سبب حزنى وتعاستى الشخصيتين (والله وحده يعلم لننى لم اكن كاذبا او مزيفا فى قولى هذا) فاخبرنى احد الحاضرين انه عن طريق الحب يمكن حل كل المشاكل فاستفسرت عما اذا كان ذلك يتضمن المشاكل الدولية فكانت الاجابة بالايجاب .

وتحاول بعض الكنائس ان تخلط العبادة بالهوايات او حتى الانحرافات الشخصية فهناك على سبيل المثال كنيسة " المنزلقين علي الامواج " . والانزلاق على الامواج هواية رياضية شلئعة في كاليفورنيا استوردت مــن جزر هاواي . اذا ما اصبحت عضواً في كنيسة المنزلفين هذه فستمارس رياضتك المفضلة بعد ان تفضي عليها هالة من القداسة والروعة وبالتالي تصبح الهواية دينا ، والدين هواية . ولتحقيق هذا المحال كل مــا عليــك ان تفعله هو ان تقول " الحمد لله ياالهي لكرمك نحونا ولكل الامواج الرائعة التي ترسلها لنا " . وتقول مجلة تايم ان مايك وندر بطل الانزلاق على الامواج وجد " الموجة المثالية " في هاواي ، الموجة التي يتمناها كل كنزلق قديم ، ولكنها لم تدخل السعادة على قلبه مما جعله يشعر بانه ينقصه شيئاً ما ، ومن هذه اللحظة بدا طريــق العــودة للمسيح . وهناك ايضاً الآن كنائس للشواذ من الجنسين يراسهم قس يعاني او يتمتع بنفس الشذوذ الذي يتسم بــه اعضاء كنيسته وهو الذي رسم نفسه بنفسه قسيساً كما هو الحال مع معظم هذه الكنائس النفسية المستقلة الحرة .

وقد يبدو هذا غريباً علينا بعض الشئ ، مسلمين كنا ام مسيحين ، لاننا ننظر للتجربة الدينية على انهــا ليست بالضرورة مصدر سعادة خاصة ودائمة ، بل هي ايضاً مصدر قلق وتساؤل بل وصراع ينجم عن محاولة فرض المثال على الذات الانسانية ، ولكن اذا كان الهدف من العبادة هو النشوة وراحة البــال فــان مثــل هــذه الكنائس تحقق الغاية المنشودة منها الي اقصى حد .

وكما قال لي احد اصدقائي ان التحليل النفسي هو الدين الوحيد في الولايات المتحدة ، فمن وجهة نظــر سيكولوجية ليبرالية لا يمكنك ان تصدر احكاماً اخلاقية او فلسفية من اي نوع على اي فرد ، فغاية المجتمع هي اراحة اعضائه نفسياً عن طرق تدريبهم على فن التأقلم مع الواقع (كما هو) وتحقيق الطمأنينة والثقة الكــاملتين في النفس (وهي نفس لا وجود حقيقي لها لانها متأقلمة مع الواقع مندمجة فيه منسجمعه ومنه) . وقد نجحــت حركة اهل يسوع فى تحقيق الطمأنينة الداخلية والانسجام لاعضائها مما جعلهم يتغلبون على وبــاء المخــدرات المنتشر فى الولايات المتحدة . ولكنها فى نفس الوقت حولتهم لافراد احاديى الرؤية وشخصيات جامدة ورجعية .

وهذا هو سر بهجة آلهة مجتمع السلع التى رحنت بالعبادة الجديدة وحققت عن طريقها ارباحا خياليــة (والشباب من أهم القطاعات الاستهلاكية فى المجتمع الامريكى) فهناك الاعلانات المسيحية الملونة التى تعلقهــا على جدران حجرتك ، والقمصان والازرار المسيحية التى تعلن بها عن هويتك الجديدة ، والاغانى والمسرحيات المسيحية التى تسرى عنك ، بل وهناك ساعة يد مرسوم عليها وجه المسيح ويقوم هو بنفسه بالاعلان عنها فــى التلفزيون (والعهدة على الراوى لاننى لم ار هذا الاعلان بنفسى وانت كنت قد رأيت الاعلانــات والقمصــبان والازرار والساعة نفسها) . وهكذا ما بدا على تمرد ذد مادية المجتمع الامريكى وقيمه ، وقع فى براثن المنطق الفردوسى الرجعى ثم فى قبضة آلهة السلع التى لا ترحم .

٤- انتحار المسيح فى برودواى

ثمة تيار عملى قوى يسرى فى التفكير الدينى المسيحى فى اللايات المتحدة ، فالبيوريتانيون ، شأنهم فى ذلك شأن بعض الطوائف البروتستانية المتطرفة ، كانوا يتصورون انه اذا رضى الله عن فرد فانه يصيب من النجاح المادى والتجارى الشىء العظيم (وهكذا يصبح الدين اتجارا والاتجار دينيا ، وهذا سمة أساسية فى التجربة الدينية البورجوازية سواء فى امريكا او مصر) .

وقد نجح اليمين الامريكى فى ان يحول قصة المسيح ، ان كان ميلاده او صلبه او بعثه ، الى ما يشبه قصة الرجل العصامى الناجح الذى تنتهى حياته التعسة " نهاية سينمائية سعيدة " وهى نهاية سعيدة يلقاها ايضا اى مؤمن ورع ، وقد أطلق بعض المتمردين اصطلاح المسيح " وعشرة فى المائة " على هذا الضرب من التدين التجارى الذى يرى ان الايمان تجارة مربحة يقبض ريعها فى هذا العالم (وفى الفردوس الاصلى) والذى يحول التجربة الروحية الى شىء كمى يمكن ان يقاس ويحسب بالمليم .

وتمثل حركة اهل يسوع تمردا على هذه العقلية التجارية ولكن حتى هذا التمرد يمكن تحويله الى استثمار مالى مربح . وهذا ما كانت تفكر فيه برودواى _ حى المسرح فى نيويورك – حينما استولت على قصة المسيح وحولتها الى مسرحية عنوانها " يسوع المسيح : النجم الاعظم " . وقد كتب اغانى المسرحية تيم رايس ولحنها اندووبر ، وكلاهما كان مغمورا قبل الاشتراك فى هذه المسرحية ، واخرجها توم اوهرجمان الذى اخرج من قبل مسرحية " هير " (شعر) . والمسرحية تعالج موضوعا موضوعا قديما مطروقا ، الصراع بين الروح والمادة مستخدمة قصة حياة المسيح فى ايامه السبعة الاخيرة ، بعد اضفاء مسحة عصرية عليها وبعد استبعاد عديد من المشكلات اللاهوتية مثل الوهية المسيح وبعثه من فبره بعد صلبه .

والاشارة فى عنوان المسرحية الى " النجم الاعظم " لها مدلولات ثلاثة :

اولا– مدلولوها المسيحى التقليدى على ان المسيح هو النجم الذى ظهر فى بيت لحم .

ثانيا– مدلولها العام ، فالنجمة تظهر فى الظلمات لتبددها فهى فهى رمز للروح التى تصارع قوى الظلام والشر .

ثالثا – مدلولها المعاصر بمعنى ان المسيح نجم سينمائى لامع يستحوذ على اعجاب الجماهير مما يجعلها مهووسة بحبه .

تفتح الستارة على يهوذا الاسخريوطى يحاول الفكاك من ابعة رجال يرتدون ملابس غريبة فى لون العنكبوت ، وهم فى سلوكهم يشبهون ربات العذاب فى الاساطير الاغريقية . ويظل الاربعة يضيقون على يهوذا الخناق الى ان يستسلم لهم ثم يبدأ فى غناء الاغنية الافتتاحية " السماء فى عقولهم " :

لقد صفا عقلى الآن – اخيرا ارى بوضوح كيف سينتهى بنا الامر . اذا نزعت الاسطورة من الرجل لعرفت كيف سينتهى بنا الامر .

يسوع ! لقد بدأت تصدق
ما يقوله عنك .

انك حقا لمؤمن
بأن هذا الحديث عن الالوهية حقا .
وكل الخير الذى انجزت
سميعا ما سيجرفه التيار .
لقد بدأت تفوق فى اهميتك
الاشياء التى تقولها .

ان يهوذا الاسخريوطى غير راضى " ان تتجسد " الفطرة فى شخص انسان محسوس ، لان التجسد يعنى ان ترتدى الفكرة الكاملة والمثال المجرد رداء انسانيا نحسوسا يقلل من كمالهما ويدنس من طهرهما ، وهو تحول تحيطه الاسرار ولا يمكن للعقل التجريبى تقبله بسهولة ، وقد يقال ان الانسان العملى لا يمكن ان يكون تجريديا ، وفى هذا خطل فى الرأى ، فالانسان العملى ضيق الرؤية لا يحب ان يتعامل الا مع ما يمكن قياسه بالارقام (النقود والكميات والمساحات) والارقام هى اكثر الاشياء تجريدا لانها مجرد علامة تشير الى الشىء المحسوس وتحل محله .

اما الانسان الكريم رحب الرؤية المؤمن بالانسان فانه على استعداد لتقبل الظواهر المركبة التى قد تختلف عن رؤيته هو ، كما انه على استعداد للايمان بالحب والعدالة والجمال على الرغم من انها قيم لا تقاس ولا توزن وليس لها ثمن معروف او غير معروف . ويهوذا الكمى الذى يحسب حسلب كل شىء يحذر المسيح من ان يجعل نفسه " المسيح المنتظر " وعن ان يوقد نيران الحماس الدينى بين الجماهير :

اعر اذنا صاغية لو عيدى يايسوع ،
بالله فلتذكر اننى اريد ان نستمركلنا فى الحياة ،
ولكن من المحزن ان ارى فرص بقائنا تضعف مع كل ساعة ،
فكل اتباعك على عيونهم غشاوة .
خيمت السماء على عقولهم اكثر من اللازم .
كم كان الامر جميلا ولكنه اصبح الان مريرا ،
نعم لقد اصبح كل شىء مريرا .

ان السماء التى لا يمكن ادراكها بالحواس الخمس هى رمز السمر الذى يعذب وجدان يهوذا التجريبى الذى يقف بالمرصاد لكل عاطفة غير مقننة . فحينما تربت مريم الجدلية على شعر المسيح يثور ويزمجر صاحبنا المتدبر ويتهم المسيح بعدم الاتساق المنطقى مع نفسه لان مصاحبته للمجدلية لا تتفق مع ما يدعو اليه. ويهوذا ثورى ولكن ثوريته منحضرة فى نطلق رؤيته الاقتصادية االضيقة ، ولذلك فهو يعنف المجيدلية لتضميخها المسيح بالعطور . الم يكن فى مقدورها ان توفر النقود التى انفقتها على المراهم والعطور لتعطيها للفقراء والمعوزين ؟ وحتى حينما تهزم يهوزذا عاطفة حبه للمسيح فانه يستنكر هذا الحب ويتعجب كيف يمكن لرجل مثل هذا ان يؤثر فيه وان يبعث فى نفسه الخوف والرهبة . ثم يتساءل عما اذا كان سيدعه وشأ نه بعد ان يصلب ام ان شبحه سيظل يطارده ؟ وتختلط الامولر امام يهوذا ويتركه صفاء عقله كلية بعد ان يسلم المسيح الى قاتليه من اجل " الصالح العام " وينتهى به الامر الى شنق نفسه بعد ان يفشل فى رؤية الروح المتجسدة وبعد

ان يرضخ للسر . ولكن حتى بعد ان تصعد روحه الى الرب فانه لا يكف عن الجدل والنقاش فهو يعاتب المسيح لتركه الامور تسير دون اية ضوابط او تخطيط علمى ، بل انه يعيب على المسيح اختياره ارضا غربية وحقبة تاريخية متخلفة لي‌انشر رسالته فى الارض :

لو اتيت فى عصر كهذا لوصلت كلمتك للامة باسرها .

فاسرائيل فى السنة الرابعة لم يكن فيها وسائل اعلام جماهيرية .

لا تسىء فهمى – فأنا لا انشد الا المعرفة .

ان يهوذادائب البحث دون كلل ودون نهاية عن معرفة يقينية عملية .

ويهوذا ليس وحده فى هذا الشان فكهنة اليهود يفشلون ايضا فى فهم يسوع وما يبشر به ، فكل الامر بالنسبة لهم ان هو الا " الجنون اليسوعى " الذى هو استمرار للجنون الذى بدأه يوحنا المعمدان " حينما كان يقوم بحكاية التعميد اياها " على حد قول الكاهن الثالث فى المسرحية . وكما قتل يوحنا المعمدان لتحديه البيروقراطية الدينية لبد وال يقتل ايضا هذا النبى الجديد ، اذ كيف يتأتى لهؤلاء الكهنة ان يقبلوا فكرة النبوة الخلاقة وهى فكرة تنطوى على ان الانسان ليس عبدا لحواسه او بيئته وقد لا يؤمن الانسان بامكان حدوث المعجزات لافى الحاضر ولا فى الماضى ولكن المقدرة على الاتيان بالمعجزات فى هذا العمل الفنى هى رمز المقدرة على الارتفاع على الحواس وعلى المواصات الاجتماعية السائدة ولهذا يكون فى رفض الكهنة اليهود للمعجزات وفى كرههم لها دليل على انهم جسد بلا روح .

والجماهير فى الخارج ساخطة صاخبة لا تلوى على شىء تنادى على معبودها " النجم الاعظم " :

هيى ى . م . لماذا لا تبتسم لنا
الحمد لله الحمد ، هيى يا نجمنا الاعظم ١
يا مسيح انت تعرف اننى احبك
الا ترى لقد لوحت بيدى ؟
انى اؤمن بالرب
فلتخبرنى اذن اننى كتب لى الحلاص

ولكن الجماهير الوالهة لا ترى سوى نجمها السينمائى العظيم وهى مولعة باختصار الاسماء على الطريقة الامريكية (ى . م . اختصار يسوع المسيح) لانها جماهير عملية على عجلة من امرها تصر على الخلاص الفورى المربح . وحتى المرضى هم ايضا يهاجمون المسيح ، كل يطلب معجزة فورية تأتى له بالشفاء الناجع .

هل لك ان تلمسنى لتشفينى يا مسيح ، هل لك ان تقبانى ، هل لك ان تتصدق على يا مسيح ؟

ان المسيح بالنسبة لهم هو ساحر / الطبيب القادر على القيام بالحيل وعلى الاتيان بالشفاء العاجل ، اما المغزى الروحى والانسانى العام لحياته والامه فهذا لا يمكنهم ادراكه . وحينما يقبض عليه فهذا لا يسبب اى

اسى لهم فهم يرون محاكمته على انها مجرد فصل اخر فى فيلم سينيمائى مثير ، ويذهبون الى حد المطالبة برقبته والتحدث اليه باستخفاف شديد :

اخبرنا يا مسيح ما هو شعورك الليلة
هل تنوى ان تصمد ؟
هل تفكر فى التقاعد الان ؟
ام تعتقد انك سيرتفع مقدارك ؟
وما رأيك فى محاكمتك المقابلة ؟
تعال معنا لترى الكاهن الاكبر ،
فانت سيروق لك منزله للغاية ،
وسيروق لك كذلك الكاهن ذاته
وستموت فى منزل الكاهن الاكبر .
انت عليم بيقين مؤيديك
من انك ستهرب فى اللقطة الاخيرة من المنظر .

ان الجماهير باستخدامها لغة وصورا تذكرنا بلغة وصور العصر الحديث تنقلنا من ايام المسيح لا يامنا هذه ، وبالتالى فالمسرحية تدعونا لان نرى انفسنا على اننا شركاء فى الجريمة ، فان المسيح هو رمز البطل الذى لا يزال عليه ان يدفع دمه ثمنا لبطولته واصراره على انسانيته وحريته ورؤيته .

والحواريون انفسهم لا يختلفون عن الجماهير او الكهنة او يهوذا فهم ايضا يطاردون المسيح باسئلتهم وبرغبتهم فى المعرفة اليقينية وهم لا يجدون اية اجابة لتساؤلاتهم ، ولكن حينما يعلمون ان المسيح على وشك ان يصلب تغوص كل محنهم والامهم النفسية فى بركة هادئة من الخمر والدم ، ويبدأون فى استخلاص العظات والعبر من الحياة هذا الرجل المطلوب ويفكرون جديا فى التقاعد ليكتبوا الانلجيل " حتى يستمر الناس فى الحديث عنا بعد موتنا " ان المسيح بالنسنة لهم نجم اعظم وتكئة لتحقيق اهدافهم العملية المباشرة ، فهم عن طريقة سيصبون الشهرة والخلود . "

فى وسط هذا الضجيج والصخب والضوضاء الرتيبة توجد ثلاث شخصيات لها ابعاد انسانية اصلية : المجدلية وبيلاطس والمسيح نفسه .

اما المجدلية فهى فتاة طيبة القلب تجمع فى شخصياتها بين الام والحبيبة ، فبينما يمزق الحواريون المسيح باسئلتهم عن " اين ومتى ومن وكيف " هى وحدها تحاول ان تهدىء من خاطره :

كل شىء على ما يرام ، نعم كل شىء طيب ،
ونحن نريدك ان تستغرق فى النوم الليلة ،
ولندع العالم يدور بدونك الليلة ،
اغمض عينيك ، اغمض عينيك ،
اهدأ واستريح ولا تفكر فى شىء الليلة .

ورغم ان المجدلية ترى مثل يهوذا ان المسيح ، فى كثير من الوجوه ، مجرد رجل اخر ، الا انها تحس انه رجل ليس مثل كالارجال ، ولذلك فهى لا بد وان تحبه بطريقة جديدة فريدة تتناسب مع شخصيته . وهى تدهش من التحويل النفسى الذى طرأ عليها ، فقد كانت دائما باردة هادئة لا تخضع للحب اهوائه ، كانت دائما سيدة الموقف او المنظر على حد قولها (والصورة السائدة فى المسرحية هى صورة العالم كفيلم سينيمائى) . وكانت مثل الاخرين عملية الرؤية تسيطر عليها الرؤية الاجتماعية السائدة ، وفجأة يبعثها حب المسيح من موتها النفسى والانسانى ، ولكنه على الرغم من ذلك يخيفها ويدخل على قلبها الرهبة لان حبها له يملك عليها شغاف قلبها ويخرجها من الانغماس فى عالم التدبر والحساب والخطط والحيل والفضائح والشهرة والنجوم السنمائية المتألقة فنجمها هو رمز الحب والخير والجمال . ان هذة المحبة الوفية والام الرؤوم تقف وحدها مع المسيح ساعة محنته حتى بعد ان باعه احد اتباعه وانكره اخر .

واذا كانت المجدلية تصل الى خلاصها عن طريقالحب فبيلاطس الوثنى الرومانى لا ينشد الخلاص اساسا، بل يرى عدم جدواه واستحالة وعبث محاولة البحث عنه ، ومن هنا كانت نسبيته واشمئزازه من اليهود ومن الجماهير الصاخبة التى تطالب بدق عنق المسيح . ان بيلاطس لا يبحث عن الله ولكنه لا يهبط الى مستوى الرؤية الاحادية العملية الضيقة لانه ليس له ولاء محدد لاى شىء وان كان عنده احساس بانسانية المسيح . يرى بيلاطس فيما يرى النائم ان هناك رجلا من الجليل تبدو على محياه نظرة الفريسية المطاردة ، فيسأله المرة تلو الاخرى كيف وصل به الامر الى هذا الحد ؟ ولكن الجليلى لا يتفوه بكلمة ، ثم تمتلىء الحجرة بالاف الرجال المتوحشين الساخطين المفعمين بكره هذا الرجل ، ثم يرى بيلاطس بعد ذلك مئات الملايين التى تبكى وتنتحب من اجل الجلجيلى ويلقون عليه هو اللوم لصلبه . ويحكى هذا الحاكم الرومانى قصة الحلم بلغة بسيطة تنم عن الاشمئزاز والدهشة من هذا الهوس الدينى الزائد الذى لا يمكنه ان يسير له غور ، وهوفى عزلته يشبه فى كثير من الوجوه الجليلى الحزين، ومما يؤكد ذلك الموسيقى الحزينة التى صاحبت اغنية " حلم بيلاطس " والتى توحى للمستمعين بان ولاءه ، ان كان عنده اى ولاء ، انما يتجه الى الامسيح الى حد كبير .

وحينما يتحقق الحلم ويؤتى بالجليلى سجينا لمحاكمته يحاولبيلاطس مقارعةه الحجة بالحجة ، فيخبره المسيح انه يبحث عن الحقيقة فيجيبه الرومانى :

ولكن ما هى الحقيقة ؟ هل الحقيقة قانون ثابت ؟
لكن منا حقيقته ، فهل الحقيقة بالنسبة لى ولك نفس الشىء ؟

ثم يلتفت الى الجماهير ليخبرها ان المسيح قد يكون مجنونا من الواجب وضعه فى السجن ، ولكن هذا ليس بسبب كاف لتدميره كلية :

انه رجل صغير حزين
وما هو بملك وما هو باله
وما هو بلص – انى محتاج لجريمة ارتكبها هذا الرجل كى اضعه فى السجن .

ولكن المسيح يعرف انه لا امل ويعرف ايضا انه من الافضل الاستسلام ، فلا بيلا طس ولا بغيره بقادرين ان يفعلوا شيئا .... فكل شىء ثابت لا يمكن تغييره.

والايمان بثبات الاشياء كلها وبعبث محاولة تغييرها عن طريق الكفاح السياسى او الاجتماعى او حتى الفردى هو احدى الركائز التى تستند اليها فلسفة الهيبى واهل يسوع ، وهذا موقف ينتج عنه السلبية المطلقة والدوران حول المثاليات الميتافيزيقية الثابته . ويبدو ان مسيح هذه المسرحية حتمى متطرف فى رؤيته – فحينما احتج يهوذا على اسراف المجدلية ، يعنفه يسوع لضيق افقه ولكنه يسوق له المنطق التقليدى انه ليس لدينا الامكانيات الكافية لاطعام كل الفقراء وانه سيكون هناك فقراء دائما . وعلى عادة الهيبى فان هذا الاحساس القدرى يؤدى الى دعوة يهو ١١ والاخرينم الى الاستمتاع بحايتهم "الان وهنا" ، وبالحب الذى يغدقه عليهم . والمسيح نفسه يقبل دعوة المجدلية ان " يدع العالم يدور بدونه الليلة " لانه اذا كان العقل الانسانى عديم الجدوى فكل الامور منساوية . ولكن الى جانب هذا المسيح يوجد مسيح السيف الذى يدخل المعبد ليطرد التجار والمرابين :

معبدى لا بد وان يكون بيتا للعبادة ،

ولكنكم حولنموه الى وكر للصوص والكهنة .

وهو يكره التجار والنعيين والوصوليين والكهنة الذين حاولوا الحياة كلها الى سوق كبيرة – وهناك ايضا المسيح المنشود الذى يؤمن بالمعرفة الحدسية والذى يؤمن بانه حتى لو سكتت كل الالسنة فالصخور والاحجار ذاتها ستبدأ فى الشدو .

وهو الى جانب كل هذا انسانى عميق الانسانية تمزقه معرفته بخيانة اتباعه له :

تصبح فى النهاية أكثر قسوة
حينما يسببها الأصداقاء.
الا تعلمون ان هذا الخمر قد يكون دمى .
الا تعلمون ان هذا الخبز قد يكون جسدى .
النهاية !
هذا هو دمى الذى ترشفون ،
هذا هو جسدى الذى تأكلون .
آه لو تذكرننى حينما تشبون وتأكلون .
انظروا الى وجوهكم الجوفاء ان اسمى سوف لا يعنى شيئا لكم بعد عشر دقائق من موتى .
احدكم ينكرنى ،
والاخر يخوننى .

وتمزق المسيح هو علامة احساسه بنفسه كارادة مستقلة واعية ولذلك فهو يسائل ربه عن معنى نهايته وصلبه ، وهل كان من الحتمى ان ينتهى هذه النهاية وما المبرر لهذه التضحية ؟ وحينما يذعن اخيرا لارادة خالقه فان اذعانه تلفحه لفحة احتجاج قوية وان كانت مستترة :

حسنا سأموت
ولكن انظر الى لحظة موتى.
انظر كيف اموت ، فلتثبتنى بالمسامير ،

سأشرب كأس سمك على الصليب ، ولتكسر عودى ،
ولتنزف دمى ، ولتضربنى ، ولتقتلنى ، ولتأخذ روحى الان – قبل ان اغير رأيى .

وهكذا يمزق المسيح قناع الهيبى الغارق فى اللحظة والباحث عن الراحة الابيوقورية . ولكن هذا الجانب المتمرد هبارة عن لمسات لا تغير من البناء الاساسى للشخصية ، فالمسيح يظل هيبيا اولا واخيرا ، منحصرا فى تجربته الذاتية وفى تأملاته وفى عالمه المستقل عن الناس والمجتمع ، وهذا يضع الصلب فى اطار جديد اذ يصبح نتيجة حتمية لوقوف البطل وحيدا فى مواجهة اتباعه واعدائه . بل انه يمكن رؤية الصلب فى هذه المسرحية على انه نوع من الانتحار (خاصة وانه لا يتبعه بعث) .

والانتحار يعد شكلا رومانتيكيا من اشكال تحقيق الذات ، بل هو اعلى هذه الاشكال لانه الفعل الذى لا تمليه سوى الارادة الذاتية المطلقة ، وهو النقطة التى لوبة منها ولا رجوع . انه السرمدية بعنها (بل انه الفردوس والجحيم الان فى الوقت ذاته) . ولعل هذا ماكان يعنيه يسوع حينما يخبر سيمون انه لا أحد : لا سيون ولا الالاف المؤلفة التى تهتف باسمه ولا الرومان ولا اليهود ولا يهوذا ولا الحواريون ولا الكهنة ولا الكتبة ولا اورشليم نفسها يفهمون ما هى القوة وما هو المجد :

كى تهزم الموت ، يجب عليك ان تموت وحسب ،

يجب عليك ان تموت وحسب .

ان الموت الذى يشير اليه يسوع فى هذه المسرحية ليس هو الموت الرمزى اللازم لدخول الحياة المسيحية الكاملة ، ولا هو الموت الذى يسبق الحياة الاخر ، انما هو فناء كامن لا بعث بعده ينهى كل الالام والامال .

وقد حاول المخرج ان يضفى ضربا من الوحدة على عناصر المسرحية المتضاربة سواء كان العنصر الدينوى الحديث او العنصر المسيحى التقليدى او العنصر المسيحى الهيبى ، فحول المسرحية الى مجموعة من الصور الرائعة الجمال التى ليس لها محتوى واضح والتى تحاول التأثير فى المشاهدين بشكل مباشرة وان تترك فى نفوسهم اثرا عميقا محسوسا لا اثر للفكر او النظرية فيه ، اى انه حاول تخطى المحتوى الفكرى عن طريق الصورة المحسوسة المتكاملة . وتوم اوهرجان مخرج المسرحية مغرم بما يسمى " الوعى الخرافى " (فى مقابل " الوعى الحديث ") فلانسان صاحب الوعى الخرافى لا يفكر ولا ينظر بل يستجيب استجابة المؤمن للطقوس الدينية التى يمارسها . وقد حاول تطبيق نظريته فى اخراج هذه المسرحية بان اكد العناصر المرئية التى تغرق المشاهدين وتجعلهم يعشون داخل الطقوس المسرحية وليس خارجها .

ومن اول وهلة نفاجأ بان الستار عبارة عن جدار هائل ينزل الى الداخل ليصبح هو ذاته خشبة المسرح . ونكتشف ان الجدار عليه خمسة رجال احدهم يهوذا والاخرون هم رمز وجدانه المعذب ، وتبدأ المطاردة والجدار لا يزال فى وضعه الرأسى . وحينما يظهر بيلاطس فانه يدخل من باب على هيئة رأس قيصر ضخمة ذات خمس جباه وعشر عيون ، كل جبهة وعينين فوق الاخرى لتعطى احساسا بعظمة وضخامة روما .

والمسيح فى احد المناظر يخرج من شىء يشبه الكرة بعد ان يمزقه ، مما يوحى انه مثل الفراشة التى تخرج من الشرنقة ثم يرتفع الى علو شاهق بواسطة مصعد صغير غير مرئى لانه مغطى برداء المسيح الذهبى

الذى يصل طول ذيله حوالى ٢٠٠ متر عل الاقل ، وقد بلغت تكاليف هذا الــرداء حــوالى ٢٠ الــف دولار . وبعض المناظر تستحوذ على المتفرج وتجعله يشترك بكل عواطفه فيما يدور امامه ، ولكــن بعــض المنــاظر الاخرى تذكر الانسان بالتلزيون الامريكى وبافلام هوليود الفخمة .

ولكن المخرج مع ذلك لم ينجح بتاتا فى حل المشكلة الاساسية التى واجهته : اعنى ترجمة قصة المسيح الى صيغة امريكية معاصرة مع الاحتفاظ بصبغتها المسيحية . فالمسيح التقليدى كان فى المسرحية ولكنــه لــم يمتزج بالمسيح الامريكى المعاصر ولذلك يظل المدلول الرمزى والاسطورى العام سطحيا ، ولا يتذكر القارىء او المستمع او المشاهد سوى لمسات رائعة وصورا شعرية جميلة مناظر مدهشة ولكنه لا يعــيش بتاتــا رؤيــة متكاملة .

الباب الثالث :

الانسان بين الأشياء والبراءة الاولى

حينما تغمض عينيك فانك تبصر لان الانسان له بصر وبصيرة ، عين حسية ترى الاشـياء واخـرى حدسية تخترق السطح لتصل الى البنية الكامنة وطبيعة الوجود . ولاننا لا نقنع من الاشياء بسطحها ولا نرضى بالواقع كما هو فاننا دائما نحلم . ويضيق نطاق الحلم ويتسع ، ويرتفع ويهبط ولكنه فى ضيقه واتساعه وارتفاعه وهبوطه يعكس ما فى داخلنا وسجسد هويتنا .

والحلم بالفردوس ، ذروة كل الاحلام ، هو ايضا لحظة الكشف الكامل ، فالفردوس هو نقطة " النجـاح " التى يتحقق فيها كل شىء وننجز فيها ذواتنا الحقيقية كما نتخيلها متحررة من كل الضـغوط اجتماعيـا وقهـر تاريخى . فان كان حلمك بالفردوس هو ثلاجة ومرسيدس تملكهما الان وهنا ، فهذه هى ذاتك فى اقصى اتسـاع لها . اما اذا كنت تحلم بمجتمع يمرح فيه بشر ناضجون اسوياء يحتفظون بشىء من البراءة الاولـى وقـادرون على الحلم دائما وابدا ، فهذه هى ايضا ذاتك فى لحظة الكشف .

وقد حج الزعيم الامريكى الاسود مالكوم الى مكة المكرمة ، كما رحـل الاديـب الامريكـى اليهـودى بودورتز من بروكلين الى مانهاتن ومنها الى جزيرة الفردوس ، عاش كل منها لحظة الفردوسية وكلاهما حقـق نوعا من " النجاح " الذى كان يطمح اليه – فما هو هذا النجاح ؟ وماذا كان المثل الاعلى الذى تحقق ؟ .

١ – فروس بودورتز المتشيىء

أ – العقد الاجتماعى الامريكى / اليهودى

حينما تصل اللا نيويورك لا يمكنك الا ان تلاحظ الوجود اليهودى فى كل مكان ، فنيويورك تحتوى على اكبر تجمع يهودى فى العالم . وهذه حقيقة تحز كثيرا فى نفـس الاسـرائليين والصـهاينة الـذين يصدرون عن فكرة " وحدة الشعب اليهودى " والتى تفترض ان كل يهودى يحتوى على زمبلك ميتافيزيقى يدفعه نحو الفردوس اليهودى المفقود فى أرض الميعاد . و لكن ها هى ذا الدولة اليهودية الموعودة قـد انشـئت ثـم توسعت وتمددت وانفتحت وانكمشت ولم يعمل الزمبلك عمله ! ولم يتزحزح التلود عن بابل الامريكية . ولكـن ليس فى هذا ما يدهش كثيرا ، فاليهود بشر رغم كل ادعاءات الصهاينة والمعادين للسامية ، وهم بشر خاضعون لنفس القوانين التاريخية والاجتماعية التى يخضع لها كافة البشر والاقليات والمهاجرون . ورغم انـه لا يوجـد منظمة لتهجير اليهود الى امريكا ورغم ان الحركة الصهيونية العالمية منظمة تنظيما دقيقا مشطة نشاطا بالغا الا ان مسار التاريخ الحديث قد دحض كل ادعاءات الصهاينة . فأكبر تجمعين يهوديين فى العالم هما فى الولايـات المتحدة والاتحاد السوفييتى ، ثم تأتى اسرائيل بعد ذلك فى المرتبة الثالثة ولا يكون سكانها الا اقل من ربع يهود العالم . ان عدد يهود الياسبورا يفوق عدد يهود اسرائيل بمراحل ، وقل موتوا ايها الصهاينة بغيظكم !

وقد استقر اليهود فى الولايات المتحدة وتقبلوا وضعهم الى حد كبير وقبلوا اسطورة " اون الصهر " اياها بدرجة متفاوتة . وقد ترجمت هذه الاسطورة الى ما يسمى بالعقد الاجتماعى الامريكى / اليهودى الذى يتلخصفى ان يهودية المواطن اليهودى هى امر خاص للغية يجب ان يمارسه فى المنزل وحسب لو فى المعبد اليهودى او المدرسة اليهودية ، ويجب الا يظهر اليهود فى الحياة العامة اليومية كيهود . واذا حدث واضطر اليهود لاظهـار هويتهم المستقلة فان هذا يكون دائما كرد فعل ، كما هو الحال فى المظاهرات التى تحتج على معاداة السـامية .

ولم يرفض هذا العقد سوى الجماعات اليهودية المغالية فى الارثوذكسية والذين وصلوا للولايات المتحـدة بعـد الحرب وصيغة هذا العقد لا تختلف كثيرا عن التصور اليهودى الاصـلاحى عـن وضـع اليهوديـة ولا عـن تصورات مفكرى عهد الانعتاق والاستنارة فىشرق اوروبا وغربها .

وقد يكون من الفيد أن نذكر أن كثيراً من المفكرين والمثقفين اليهود في الولايات المتحدة يعتبرون أنفسهم أمريكين بالدرجة الأولي ، وأما مسألة كونهم يهوداً فهم ينظرون على أنها مسألة ثانويـة تسـاهم فـي تشـكيل وجدانهم دون أن تحدده أو تحده . وكثير من أصدقائي الطلبة اليهود في الجامعة وأذكر بالذات ستقين ميلر الذي يكتب الأن في مجلة دسنت وسينشر له دايون شعر في لندن في الربيع القادم ، يرفضون كل المحاولات لفـرض هواية مستقلة صوفية ، فهم يقبلون يهوديتهم على أنها عصر ضمن عناصر عديدة تشكل رؤيتهم للواقع . وكثير من كبار مثقفي الهيود في أمريكا يرفضون الصهيونية أما بشكل سلبي وذلك بعدم ذكرهـا بتاتـاً ، أو بـالحرب ضدها بشكل نشط . ومن بين هؤلاء نذكر الناقد الشهير ليونيل ترلنج (ليونيل كوهين ترلنج سابقاً قبل أن يغيـر أسمه) الذي يصدر رؤية هيومانية علمانية ليبرالية ، ولذلك صرح عام ١٩٥٢ بأنه ليس متعاطفاً مع محـاولات إنشاء دولة يهودية . ولكن بعد مرور عشرين سنة على إنشاء الدولة نجد أن المفكرين أمثال ترلنج يوقـع علـى المنشورات تأييداً لإسرائيل ضد (العدوان العربي) وضد محاولات القاء اليهود في البحر ، ولكن توقيعهم مثل هذه المنشورات لا يغير من موقفهم الفكري ، وأنما هو رد فعل لبعض التشجنات العربية التي نجح الصهاينة في استغلالها ، واستسلام من جانبهم للصهاينة . ولكن ليس كل المفكرين اليهود مثل ترلنج فهناك فريـق بيـنهم لا يزال يحارب ضد الصهاينة مثل العالم النفساني الشهير أريك فروم والعالم الاجتماعي دافيد ريزامـان والعـالم اللغوي الشهير نعوم شومسكي ، وكلهم رافض للفكرة الصهيونية وللتصور الصهيوني للواقع ، وبعضهم يعمـل بنشاط ضد العدوان الإسرائيلي . ولعله قد يكون من الغريب بالنسبة للقارىء العربـي أن يعـرف أن جمـاهير الصهاينة النشطة هي أساساً الطبقة المتوسطة اليهودية التي تعود أصولها السلالية لشرق أوروبا ، أما المثقفـون والمفكرون اليهود فهم نادراً ما يلعبون دوراً صهيونياً ويكتفون بالتوقيع على المنشـورات الصـهيونية التـي لا تنتهي ، تأييداً لهذا استنكاراً لذلك . وأي قارىء لمجلة ميدستريم الصهيونية سيجد أن كتابها صهاينة محترفـون وليس من بينهم اسم واحد ذا مكانة قومية في أمريكا . أما كتاب المجلة اليهودية كومنتاري فقليل مـنهم احـزر شهرة قومية . وهذه القلة عادة ما يكون اهتمامها منصباً على قضايا عامة وعاى المشكلة الهيودية فـي أمريكـا وليس على قضية " وحدة الشعب اليهودي " .

ب ــ تعليم اليهودي الامريكي

ومن الكتب اليهودية الأمريكية التي أثارت ضجة في الولايات المتحدة كتاب السيرة الذاتية الـذي كتبـه نورمان بودورتز رئيس تحرير مجلة كومنتاري التي تشرف عليها اللجنة اليهودية الأمريكية . واسم هذا الكتاب هو Making It والترجمة الحرفية لهذه العبارة هي " صنعتها " ولكن حيث أن هذه العبارة اصطلاحية فلـتكن ترجمتنا لها هي " النجاح " . وقد نشر الكتاب أول ما نشر عام ١٩٦٧ ولكنه ظهر ثانية عام ١٩٦٩ .

وتفكيرنا على النجاح مرتبط بتصورنا لانفسنا ولدورنا في المجتمع وتوقعاتنا من هذا المجتمع أو لـيس النجاح هو توهمنا أو إيماننا بأن بعض أهدافنا أو مثالياتنا ــ أن شئت ــ قد تحقق ، وهذه الأهـداف والمثاليـات هي التي تحكم سلوكنا وهي التي تحدد مدي تقبلنا أو رفضنا لواقع ما ؟ فنحن قد نرى أن غاية الحيـاة هـي أن

نفعل الخير ونتحاشي الشر كما يقال سقراط ، أو نأمر بالمعروف وننهي عن المنكر ، أو أن نربـــي اطفالنـــا أو نصطاد حسناء باهرة الجمال أو أن ندمر أو نعمر . " ومن كانت هجرته لله ورسوله ، فجهرته لله ورســـوله ، ومن كانت هجرته لتجارة يصيبها أو إمراة ينكحها فهجرته إلي ما هاجر إليه " .

أن تصورنا على النجاح هو أساس تصورنا لاشياء كثيرة ، والسيرة الذاتية التي بين أيدينا هي تـــاريخ للنجاح الباهر الذي يتصور كاتبنا أنه احزره . ولانها قصة نجاح نجد انها تكتسب مدلولاً شاملاً فـــي الولايـــات المتحدة ، بل أن بودورتز يرى سيرة حياته على انها محاولة منه لتشخيص المواقف المتباينة بخصـــوص فكـــرة النجاح في الحضارة الامريكية ، فهي حضارة برجماتية تقدس النجاح وتراه معياراً لكل شئ ، ولا شـــئ يـــنجح مثل النجاح كما يقول المثل الامريكي . وعبادة ربه النجاح ، هو المرض القومي الاول في الولايات المتحدة . ثم يضيف بودورتز قائلاً " لكن الولايات المتحدة من ناحية اخرى انتجت ادباً يحتقر فكرة النجاح كما انها حضـــارة تسعر من جوع الانسان للنجاح ثم تحرمه من ان يجابه رغباته ويجني ثمرة تحقيق امانيـــه " . ولا ادري مـــاذا يعني الكاتب من هذه العبارة الاخيرة على وجه الدقة ، ولكن على أية حال حتى لو كانت دلالـــة عميقـــة لهـــذه العبارة ، وحتى لو كانت تشخيصاً لجانب اخر المفهوم الامريكي للنجاح فان الكاتب قد اسقط هذا الجانب مـــن اعتباره تماماً إذ أنه يصرف كل قواة لمعالجة الجانب الاول وحسب ، وهو بهذا يدل على انه امريكي عـــادي او متوسط " مدل امريكان " اكثر مما يتصور .

ويعتقد كاتب السيرة انه مرشح اكثر من غيره كي يعالج قصة النجاح النموذجية لانه ولـــد فـــي شـــرق أوروبا اليهودية من ابوين يهوديين هاجراً من شرق أوروبا ، والمهاجرين اليهود إلي امريكا كما يخبرنا هو نفسه ـــ تدفعهم رغبة جاحمة وشهوة شديدة للنجاح ـــــ أي أنهم أكثر من أي فريق أخر يبلورون هذا الجانـــب مـــن الشخصية الاميركية . فالنجاح بالنسبة لها كان هو كل شئ . وكان يعني الحصول على المال الـــوافر والمكانـــة الاجتماعية اللائقة . أن " يهودية " بودورتز هي التي ترشحه لان يلعب دور " امريكي " . فلنمعن النظر قليلاً في هذه " يهودية " .

كان ابوه رجلاً محافظاً على الطقوس الدينية لاعن اعتقاد ديني وانما على التزام غريـــزى بمـــا يســـمي بالبقاء اليهودي ، وهو التزام لا يستند الي تبرير عقلي ولذا فهو اعمق وابقي من الالتزام التقليدي ، بينمـــا كـــان معظم المهاجرين من شرق أوروبا اما اشتراكين او صهاينة . نجد ان ابا بودورتز كان متعاطفاً مع الاشـــتراكية دون أن يكون اشتراكيا متطرفاً ، كما انه كان صهيونياً دون ان يكون صهيونياً متحمساً ، ورغم انه كان يتحدث اليديشية (رطانية ألمانية سلافية دخلتها كلمات عبرية) طيله حياته الا انه لم يكن احد المدافعين عـــن التـــراث اليديشي . انه اب عادى متوسط كان يدافع بكل بساطة عن البقاء اليهودي وحســـب بشـــكل لا يمكـــن تصـــفيته وبطريقة انتقائية ، فهو كان متسامحاً مع أي شكل من اشكال الوجود اليهودي طالما ان هذا الشـــكل " يهـــودي " يشكل محدد وواع بذاته . ولكن أي اتجاه نحو الاندماج ظاهراً كان ام مستتراً كان يثير حفيظته ، فالمهم بالنسبة له ان يكون يهودياً ، والوسيلة للوصول لهذا الغرض هو الـــتعلم اليهـــودي ، ولا يهـــم بعـــد هـــذه التعريفـــات والايديولوجيا والتبريرات (فنلاحظ هذا علمنا اليهودية وكيف أن البقاء اليهودي اصبح مطلباً صوفياً لا يتطلـــب تعريفاً او تبريراً او سند ايديولوجيا) . وارتباط الاب بمطلبه هذا امر عميق للغاية ، ميتافيزيقي فـــي عمقعـــه . وللتدليل على هذه الحقيقة يخبرنا المؤلف بهذه القصة الطريفة ، فقد قرر مرة مقاطعة الدراسة اللاهويتة لضـــيفة

بها ، فداهمت اباه على التو نوبة قلبية الزمته الفراش ووصلت به الي حافة الموت . ولكن عندما عـدل الشـاب المتوسط بودورتز عن موقفه ، وبعد ان اعلن انه سيستمر في دراسته اللاهوتية تحدجث المعجزة ويشفي الرجل!

لكن ما هو هذا التعليم اليهودي الذي " يصنع " اليهود ، والذي يفسر معجزة البقاء اليهـودي ؟ يخبرنـا بودورتز ان الغرض من هذا التعليم لم يكن توسيع المدارك او تدريب العقول والحواس او حتى دراسة التـراث اليهودي وانما كان الغرض منه هو تعميق الاحساس باليهودية ، وكان الهدف الاساسي هو الإبقاء على الكيـان اليهودي .

ولكن بطل سيرتنا لم يتلق تعليماً يهودياً وحسب وانما ذهب لمدارس الاغيار ايضاً ، فقد ذهب إلي مدرسة ثانوية تلقي فيها العلوم الحديثة وهي مدرسة " مسزك " التي كانت تكره اليهود كراهية عميقة وتحتقرهم لقذارتهم وتخلفهم كما يخبرنا المؤلف . الا ان المسزك رأت ان عقله هو ، طفل الحوراي اليهودية ، كان على جانب كبير من النضوج ، وان امكانياته ولا شك كبيرة ، ولذا تبنته هذه السيدة غير اليهودية ولم تطلب منه سوى بعد ذلـك ان يتعلم طرق الحضارة الامريكية . ثم ذهب مؤلفنا اليهودي بعد ذلك الي الجامعة كولومبيا وهي التـي كانـت لاتزال جامعة " الواسب " او اليهود الواسب القادرين على اكتساب معـارف الاغيـار واخلاقهـم وعـاداتهم . واكتشف في هذه الجامعة ان هدف التعليم هناك هو كيف تصبح جنتلمان : في كولو مبيا تعلو روائع الحضـارة الغربية من هومر الي كافكاً ، ولفرط دهشته اكتشف ان رحابة هذا التراث قد احتوت وضمت فيها ضمت تراثه اليهودي الخالص الذي كان يدرسه في المدرسة اللاهويتة وكانه لا علاقة له باي تراث انسـاني اخـر ، ولقـد نجحت كولومبيا في ان تجعل منه جنتلمان رغم انفه ورغم كل محاولاته عدم التخلي عن هويته الهيوية . فهـو كان يصر على ان يرتدي ملابس ذات طابع يهودي ، ويستخدم المصطلح الذي تعلمه فـي بـروكلين ، الحـي اليهودي ، ولكنه رغم ذلك بدا يخوض تجربة التغير والتحول . لم تعلمه كولومبيا مجموعة من الاخلاقيات وانما غيرت ذوقه بان اعطته تعليماً راقياً رحباً ، بهذا جعلت من العسير عليه ان يعود الي المكان الذي اتـي منـه . وحتى هذه اللحظة كان بودورتز يذهب الي مدرستين واحدة يهودية واخرى امريكية ، ولكن بعد تخرجـه مـن كولومبيا حصل على منحة وذهب الي كامبروج حيث درس على يد ليفيس الناقد الانجليزي (المسيحي) الـذي يصدر نقده على استيعاب دقيق وحساس للحضارة الانجليزية وللتراث الادبي الانجليزي . ومـن هـذه النقطـة اصبح تعليم بودورتز علمانيا وحسب .

ترك بودورتزو بروكلين اليهودية وراءه وذهب الي مانهاتن المسـيحية (قـرة عينـه) بـلاد الطبقـة المتوسطة العالية " وهو يعرف انه عضو في هذه الطبقة لا يسبب دخله وانما بسبب طريقة تنغيمه لكلامه ونوع الملابس التي يرتديها " (يذكرني اهتمام بودورتز بملابسه باهتمام هرتزل بنفس الموضوع ، فقـد كـان ينفـق الساعات الطوال يفكر في أي بدلة تلبسها قبل ان يزور فلان الملك او فلانة الاميرة ، وفي المؤتمر الصـهيوني الأول كاد يبكي حينما رفض صديقه الزعيم الصهيوني ماكس نوردو ان يرتدي حلة رسمية !) اصبح بودورتز عضواً في الطبقة المتوسطة العالية بسبب طريقة تأثيثه لمنزل ونوعية المدارس التي يذهب اليها اولاده ـــ انـه ينتمي الي هذه الطبقة بسبب مظهره (ظهور الانسان البلاستيك الذي يغير لكنته وضميره وقبعته دون مقاومـة كبيرة ـــ تماما مثل المهاجر الذي يذهب من بلد الي اخر فينجح نجاحاً باهراً لانه يسقط هويته القديمة ويكتسـب

مظاهر الهوية الجديدة ، اقول مظاهر لان الهوية شئ لا يكتسب في ايام وشهور او سنين . وهذا هو الدرس المرير الذي يعرفه علماء الاجتماع الاسرائيليين) .

ترك بودورتز شرق بروكلين وذهب الي مانهاتن ، ورحلته ـ كما يخبرنا ـ ذات دلالة رمزية ، فكل سكان هذا الحي اليهودي اما نجحوا في الذهاب الي مانهاتن مثله او ترقوا وذهبوا الي لونج ايلاند ، واما شرق بروكلين فقد تحولت الي جيتو زنجي . وكان بودورتز طيلة تعليمه النموذج اليهودي الامريكي يشعر بالتحول التدريجي ، فقد لاحظ انه بد ، يخجل من امه ومن طريقة حديثها باليديشية (هذه اللكنة الاجنبة التي حاول بطلنا اليهودي ان يتخلص منها باسرع وقت حتى يمكنه ان يتمم الرحلة الي الفردوس) . وفي الحي اليهودي كانوا يعلمون انه يتبعد عنهم رويداً رويداً . كانوا يقولون له : " بعد السنوات لن ترغب حتى في الحديث الينا ، ولن تعرفنا مررت في الشارع " وهو في براءة الطفولة كان لا يتصور ان مثل هذا يمكن ان يحدث . ولكن تدور الايام وتثبيت مصداق قولهم : " لقد كان عندهم بصيرة سوسيولوجية ثاقبة " (واحدى خصائص بودورتز انه كلما يشعر بالحرج يختبئ وراء عبارات عملية رصينة ومحايدة) . ولكن هل خرج بودورتز حقاً من الجيتو اليهودي العقلي هذا الجيتو الذي كان يحاول موسي مندلسون فيلسوف الاستنارة اليهودية هدمه ؟ يبدو ان التعليم اليهودي او " فابركية اليهود " يجعل هذا امراً عسيراً بعض الشئ ، فبطلنا منذ طفولته وصباه كان يعجز عن الذهاب الي أي مطعم يشاء يسبب قوانين الطعام اليهودية ، كما ان تعليمه المزدوج اليهودي الامريكي كان يضطره للذهاب الي المدرسة اليهودية بعد الدراسة وان يحضر بعد الفصول يوم الاحد مما يجعله مزدوج الشعور والولاء . ولكن الدراسة في المدرسة اليهودية مع هذا لها ما يعوضها في السيرة الذاتية ، فقد حققت لبودورتز فرصة تحقيق نجاحين : واحد في الصباح واخر في المساء ، أي النجاح كان " دوبل " ، كما ان مجموعة من بنات الحاخامات في حياته الدراسية جعلت حياته الجنسية عامرة خصبة وزدنه خبرة ومعرفة (ولا ادري بالضبط ما هي الدلالة السويولوجية لهذه الاشارة الاخيرة ، ولكني اورتها لان كاتبها لا يذكر حياته الخاصة الا نادراً ، وهذه هي احدى اللحظات النادرة التي خشيت اضاعتها) .

بود ورتز اذن يهودي امريكي ، او امريكي يشعر بيهوديته ولذا فهو يتفلسف عن " مشكلته " اليهودية قبل ان يعرض لقصة نجاحه ! ولكن ما هي مشكلة اليهود مع العالم ؟ ما هو سبب احزانه اليهودية الخاصة ؟ اقترح سول بولو (القصاص اليهودي الامريكي) ان مشكلة اليهود تتخلص في انه لا يقبل العالم ولذلك فــي فالعالم لا يقبله . هذا يتوقف الرواى بود رتز ليتفلسف قليلاً وليؤرخ لليهود فيتحدث عن يهود عصر الاعتناق في اوروبا في القرن التاسع عشر الذين قال زعماؤهم :

" اقبلوا العالم والعالم سيقبلكم ، اخرجوا من الجيتو وستجدون ان حوائط الجيتو الذي يحط بكم تتساقط " . ولكن ، يقول الرواي ، اكتشف يهود المانيا (دائماً يهود المانيا) وكل اوروبا ان المشكلة مشكلة الجانب الاخر (جانب الاغيار) المسألة لم تكن ما اذا كان اليهود سيقبلون العالم وانما عما اذا كان العالم سيقلبهم (ولنلاحظ الاستقطاب اليهودي القديم ـ شعب الشهداء في مقابل ذئاب الاغيار الذين لا يتربون ، وإذا تابوا عادوا بعد فترة لما كانوا عليه من جرم) .

ولكن لنعد لسيرة بودورتز الذاتية لنرى الترجمة الشخصية لهذا التعميم الفلسفي ، والتعميم الفلسفي لا يتتد الي قراءة للواقع هو ضرب من ضروب الغيبية ، ولنسأل الآن عمن يرفض من في الولايات المتحدة ؟ يذهب

بود ورتز كما قلنا من قبل الي كامبردوج (الدائرة الكبيرة) ، وحينما يعود لقضاء أول عطلة صيفية في الدائرة اليهودية الصغيرة في منزل اسرته يشعر بالغربة شبه الكاملة بينه وبين ابويه ، فالتعليم المسيحي او العلماني ولا شك قد فعل فعله واتي اكله ، ولكن مما زاد التوتر بل ووصل به الي درجة لا تحتمل هو اعلانه نيته انه سيتزوج من فتاة غير يهودية (ياللهول ! هذه هي قضية القضايا ومشكلة المشاكل ومأساة المآسي بالنسبة للام اليهودية حامية حمي " البقاء اليهودي ") .

نعم نحن نعرف موقف الأم اليهودية ، ولكن ما موقفه هو خريحج كولومبيا وكامبردج ؟ لنترك له المسرح ، فلندعه هو يتكلم ولنترجم هذه الكلمات حرفياً مكتفين بالتعليق بين الاقواس : " ان شكوك ابوي (وليست شكوكه هو العلماني بالطبع) بخصوص هذه النقطة (الزواج المختلط) ان لم يكن بخصوص نقط اخرى لها جذور راسخة في معلومات تجريبية دقيقة " . (ولنلاحظ محاولة الراوي مرة اخرى اختفاء خلف الاختفاء خلف لغة سوسيولوجية محايدة حتى يخفي تساقطه في احضان يهوديته الجيتوية) . ثم يستألف الراوي حديثه عن " الشيكسا " الابدية الازلية (وكلمة " شيكسا " يستخدمها اليهود للاشارة للبنات غير اليهوديات اللائي يحاولن التزوج من الشبان اليهود واللائي يقلقن مضجع الامهات اليهود (وليس مضجعه هو بالطبع) " انها الجنية الجميلة الشابة التي تغوي الشبان اليهود الابرياء فيسقطوا في احضانها بعد ان تستخدم حيل جنسية سرية لا يعرفها سوى الاغيار من الناس ") .

هذه النبرة المتهكمة ، وهذا المصطلح المتحضر المحترم ، يضع الراوي العلماني في ناحية (مع قارئه العلماني) والام اليهودية في ناحية اخرى ، مما يجلعنا نتوقع مواجهة بين النور والظلام ، او على الاقل بين خريج كامبردج وامه اليهودية ، ولكنا يخيب ظننا إذ يضيف " في النهاية لحسن الحظ لكلينا لم نتزوج " . وهكذا يحسم القضية وينتهي البطل في معسكر الام اليهودية التي كان يتهكم عليها منذ سطور ودقائق قليلة . من يرفض من ؟ ان التزاوج بين اعضاء الاغلبية الاقلية هو اكبر دليل على التقبل الانساني الكامل من جانب الاغلبية ، ان الانسان لا يمكنه ان يقبل ان يعيش بقية ايام حياته مع انسان اخر الا اذا كان يعترف بانسانيته لا بشكل عام ونظرى وحسب بل بشكل شخصي ومحسوس ايضاً . ولكن شغل اليهود الشاغل في الولايات المتحدة هو كيفية الحد من الزواج بين اليهود والمسيحيين حتى احدى تنظيمات الحاخامات اخيراً اتخذت قراراً بطرد أي حاخام يقوم بعقد زواج مختلط ، وبودورتز في قراره لم يختلف باي شكل عن امه الجيتويه او عن الحاخامات المتعنتين (وذكر الخطيبة الشيكسا هى الحادثة الثانية التى يذكرها الراوى فى سيرة حياته الذاتية) .

والجيتو العقلى الذى يعيش فيه بود ورتز هو جيتو كامل شبيه مطلق فحينما يطلب منه رئيس الجمهورية (ل . ب جونسون) ان يذكر له ستة اشياء يهمه ان يرى الحكومة الامريكية تقوم بتنفيذها يقع فى ورطة ، فهو دائما فى علاقته بالعالم الخارجى لم يكن يشعر الا بالعجز ازاء ما يحدث وما لا يحدث . وليفسر حالته النفسية هذه يشبهها بحالة اسلافه الذين كانوا يعيشون فى الجيتو فى شرق اوروبا " انا لم ابن (وهم ايضا لم يبنوا) هذا الجيتو ، ولكن الامر لا يستلزم مجرد هدم حوائط الجيتو كى اخرج منه وانما يتطلب اكثر من ذلك " . (وهو ايضا يشبه فى هذا الاسرائيليين من حيث لا يدرى ، فهم ايضا لم يبنوا الجيتو الذى يحيط بهم من كل مكان ، ولكن من بناه ؟ هل نزل علينا من السماء ام ان رفض التاريخ والعالم والتعالى عليهما هو الاساس الذى ينبنى عليه اى جيتو يهوديا نفسيا كان ام فعليا فرديا كان ام قوميا ؟) ان المثقف الذى يعمل داخل الحدود الاجتماعية

المعترف بها يشبه اليهودى الذى يخرج من الجيتو ويندمج مع الاغيار مثل هذا المثقف هــو ولا شــك المثقــف الحقيقى ، اما من يقف خارج التاريخ مشمئزا من الآخرين (او الاغيار) فهو نموذج بشرى مستمد مــن جيتــو شرق اوروبا .

والاستعارات اليهودية تترى الواحدة تلو الاخرى فى كتابات بودورتز ، فهو حينما يدعى لشقة فيليــب راف ، احد الادباء اليهود المشهورين ، يعرف صاحبنا انه " وصل " ويشبه الحفل بطقوس البار متزفــاه (بعــد حفلة البار متزفاه يعرض على فتاه ان تذهب معه الى منزله ولكنها ترفض ، وهذه ثالث اشارة لحياته الخاصة).

وحتى حينما يخرج الى العالم الخارجى ، العالم المسيحى الرحب اياه فهو يحمل فى جرابــه اســتتعاراته اليهودية . فاالعال الادبى فى نيويورك هو فى جوهره " اسرة يهودية " ورغم ان كثيرا من الكتاب غير يهود الا انه يصر على استعارة الاسرة اليهودية . وحينما نبحث عن سبب التسمية نجد انه يسوق لنا اسباب واهية ، فهى يهودية لان الاسرة اولا لم يكن عندها احساس بالانتماء لامريكا بل للعالم . ولكن اليس هذا احساس مشترك بين كل مثقفى العالم ؟ ولكن بودورتز داخل الجيتو اليهودى يتصور ان اليهودية هى مركز كــل شــىء ولا يريــد التزحزح عن جيتويته .

جـ – رحلة النجاح

ولكنه هل يرفض حقاً التزحزح. إن يهود الجيتو كانوا لا يتحدثون عن السعادة الأرضــية، لقــد كانــت يهوديتهم تعنى أنهم شعب من الشهداء، ولذا فقد كانوا يقضون جل حياتهم تحيطهم الطقــوس اليهوديــة التــى لا تنتهى، ينتظروه وصول الماشيح. ولكن بطلنا يقضى حياته فى "أطول رحلة عرفها من التاريخ" من بروكلين إلى مانهاتن من الحى اليهودى إلى الحى المسيحى، وهو أطول رحلة رغم أن ما يفصل مانهاتن عن بــروكلين هــو كوبرى صغير لأنها رحلة النجاح الأمريكية ذات الدلالة الدنيوية العميقة، رحلة يصبح بعدها اليهودى بطلاً ناجحاً بورجوازياً يتقبل القيم الأخلاقية التى تستند إلى فكرة النجاح. ويعلن للملأ بأعلى صوت : "أنا الآن رجل، عندى أسرة، ولى اسم ومكان (أو ربما مكانة) فى العالم" (تصفيق حاد!).

وهو فى قمة مجده يتذكر أيام الظلام والجاهلية الأولى حينما كان عند قاعدة الهرم، يحكــى لنــا البطــل الناجح أنه كان يتحدث مرة مع نجمة سينمائية (تجسيد فكرة البطولة البورجوازية) حينما جاءت نجمــة أخــرى. ولكن بود ورتز الخام الجاهل استمر فى الحديث ناسياً مكانه ومكانته، فإذا بالنجمة الأولى تصيح قائلة : "فلنتركنا يا غبى فأنا الآن أتحدث مع من يناظرنى – مع واحد من مكانتى". ولا يعترض بود ورتز على الموقف ذاتــه أو على أساسه الأخلاقى بل يقصر اعتراضه على قسوة الكلمات وصياغتها وحسب – أى أنه يقبل هــذه الهرميــة الجامدة اللاأخلاقية. هذا هو عالم السوق – من كل حسب ثروته إلى كل حسب مكانته وقدرتــه علــى هزيمــة الآخرين، ونحن حينما نقول "السوق" فنحن لا نقول ذلك من باب المجاز، وإنما نعنى ذلك حرفياً، فهو فى تســلقه الهرم نحو النجومية واللمعان يكتشف قوانين السوق ويعرف ما يسمى برياضيات "الشــهرة" وحســاباتها ! كمــا يكتشف ما يسميه "بورصة الشهرة" فى نيويورك ونشرتها اليومية، أنها نشرة غير مرئية ولكنها حقيقية. هل دعى فلان إلى منزل جاكلين كنيدى ليلة أمس؟ خمس فقط سعود. ألم يدع الشاعر لويل وزوجته فلانة لمقابلة الشــاعر السوفيتى الذى يزور الولايات المتحدة الآن؟ ثمان نقط هبوط. هل رشح كتاب فلان لجــائزة الكتــاب القوميــة؟ نقطتان وخمس أثمان صعود. هل أهملت مجلة البارتيزان ريفيو دعوة فلان ليشترك فى أحدى ندواتها؟ نقطتــان

هبوط وهكذا. وحينما يظهر كتاب بود ورتز بناء وهدم فإنه يتردد فى أن يقرأ النشرة اليومية، ولكنه، وهو البطل الذى نعرفه، يمسك بتلابيب شجاته ليكتشف (ويحسن الطالع) أن شهرته قد زادت، وأن اسهمه بدأت ترتفع بشكل غير أكيد حينما نشرت مجلة التايمز عرضاً لكتابه (مع صورة له) فى الصفحة الرابعة. وارتفعت شهرته إلى حد ما مرة أخرى حينما نشرت نيوزويك صورة له ومقالاً يمتدحه. ولكن شهرته انخفضت قليلاً بعد هجوم شرس عليه فى النيويورك ريفيو أوف بوكس (ولم يصاحب الهجوم حتى صورة كاريكاتورية مما جعل سمعته تهبط نقطة أخرى) وهكذا. وكل الناس جزء من هذا السوق وهذه الحرب اليومية للحصول على النجاح، أنها حياة نيتشوية باهرة. كل الناس فى حرب الواحد مع الآخر، كل الناس اما منتصر أو منهزم، صياد أو فريسة.

وهل مشكلة النجاح كما يقترح علينا بود ورتز هى أن تلقى بنفسك دون أى خجل أو حياء فى خضم المعركة وأحضانها. إن حكمة حياته تتلخص فى اكتشافه الرائع الذى توصل له وهو بعد فى الخامسة والثلاثين من عمره أنه من الأفضل أن يصيب المرء النجاح من أن يبوء بالفشل، وهذه هى الحقيقة العظيمة التى توصل لها بخصوص "طبيعة الأشياء". هذا هو جوهر نسقه الفلسفى. وقد توصل إلى حقائق أخرى تابعة، فهو "متيقن الآن من أن النقود شئ هام" وهذا اكتشاف لم يصل إليه إنسان من قبل (كما يضيف متهكماً) "ولا شك من الأفضل أن أكون ثرياً على أن أكون فقيراً. أعرف أن القوة شئ مرغوب فيه، فمن الأفضل أن تعطى أوامر من أن تتلقاها. أعرف الآن أن الشهرة شئ لذيذ دون تحفظ، فمن الأفضل أن تكون معروفاً على أن تكون مغموراً". وهكذا تتعالى الصلوات لربه النجاح فى صوت ملئ بالتقوى ومفعم بالورع وولعه بالنجاح والشهرة يصل إلى أبعاد لا يمكن تخليها خـ فبينما هو فى الجيش يكتب مقالاً لمجلة كومنتارى، وحينما يصبح المقال موضوعاً حاداً للنقاش يثير الأمر الغبطة فى قلبه لا لأن المقال جيد (يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر) ولا لأنه مقال قد حقق عهن طريقه ربح (تجارة يصيبها أو إمرأة ينكحها) وإنما لأن الماق لجعل منه موضوعاً للحديث، وهذا هو المهم أن يظل هو السلعة الرابحة والشئ المطلوب. لم يعد بود ورتز مرتدياً قناع البلاستيك للدعاية، بل أصبح هو نفسه الرجل / الإعلان / البلاستيك – الإنسان السلعة ولا حول ولا قولة إلا بالله.

ولعل تشيؤ بود ورتز الكامل يفسر لنا لماذا يذكر الشيسكا وبنات الحاخامات وفتاة البار متزفاه – أى الفتيات اللائى يعرفهن بشكل عابر سطحى، يحاول استهلاكهن ويحاولن استهلاكله، يحاول اصطيادهن أو يحاولن اصطياده، أما زوجته وأطفالته فلا يذكرهم إلا فى سياق الحديث عن تكاليف حياته المتزايدة أى أنهم يذكرون باعتبارهم هم أحد العناصر التى تزيد من جوعه ورغبته المتزايدة فى النجاح.

وحينما تدعوه مجلة النيويوركو للكتابة يهز بطلنا اليهودى الناجح رأسه كالحكماء مؤكداً أنه بذلك يكون أول أديب شاعر يدعى للكتابى فى البارتيزان ريفيو (المجلة اليهودية) والنيويوركو (مجلة الأغيار) فى خلال أسبوع واحد (تصفيق حاد مرة أخرى) أنظروا إلى ! أنظروا إلى الشئ اليهودى الناجح.

والشئ اليهودى الناجح هو الإنسان الأمريكى. الإنسان المرن المطاط "المتكيف" مع واقع الأغيار الرأسمالى. ولكن تكيف بود ورتز متطرف بعض الشئ، تكيف من اشتهر ونال بعد طول جوع، ولذا فعلى الرغم من أنه "البطل الناجح" إلا أنه لا وجود له البتة حتى فى سيرته "الذاتية"، إذ كل ما يبقى منه هو مجموعة من قصص النجاح النموذجية النمطية. إن ما تقابله هو النمط البلاستيك وليس إنساناً حياً ينتصر أو ينكسر.

بعد نجاحه الباهر المبدئى بدأ بود ورتز يحل بالنجاح الكامل أو الفردوس المفقود. وحلم بود ورتز بالفردوس يبعث بعض الشئ على الفزع، فهو يشير إلى كثير من المفكرين اليهود الذين يحلمون بفردوس ليس فيه يهود أو مسيحيون، وليس فيه عمال ولا أصحاب عمل، وليس فيه أطفال حوارى ولا مترفعين متأنقين (ويس فيه ولا شك عربى ولا عجمى ولا فلسطينى بطبيعة الحال). وياله من فردوس بلاستيك خال من كل تنوع وليس فيه حدود.

ويبدو أن بود ورتز بدأ يحل بالفردوس بعد أن "وصل" فمن هناك، من ذروته الأرضية هذه، يمكنه أن يحلم بالفردوس. يقول بطلنا الناجح أنه كان مصاباً بأزمة اجداب فنى، ولكن حينما يقرر أن يكتب من أجل المال لا من أجل الشهرة (ولكن ما الفرق بينهما؟) يصبح سليماً معافى خلاقا ! ويأتيه الخلاص على هيئة عرض من مجلة شو بأن يكتب مقالاً شهرياً نظير ٧٥٠ دولاراً. ولكن يبدو أن "الخلاص" الذى يتحدث عنه هو مجرد خلاص عادى، وليس بخلاص لوكس أو فردوس ولذلك لا يسبب له أى "تحولات" جوهرية. ولكن حينما يتلقى دعوى المليونير هنتجتون هارتفورد لحضور مؤتمر فنانى شمال أوروبا تحدث المعجزة. فقد عقد المؤتمر على جزيرة يمتلكها هذا المليونير. ولندع بودورتز يتكلم مكثفيين بالترجمة : "بدأ هارتفورد ينفق حساب ليطور هذه الأرض التى تعرف سابقاً باسم جزيرة الخنزير حتى تصبح أجمل مكان للاصطياف وأكثرها ترفهاً فى كل منطقة البحر الكاريبى. ولم تكن كل برامج التطوير قد نفذت بعد، إلا أن جزيرة الفردوس كما أسماها هارتفورد كانت تستحق بالفعل اسمها حينما وصل إليها، أعضاء ندوة شو، وأنا من بينهم.

ولقد تركت الخمسة أيام التى قضيناها فى جزيرة الفردوس أثراً لا يتناسب بأية حال مع أى شئ محسوس حدث لى هناك، إلى درجة أنه يمكننى القول أنها تفتقد إلى معادل موضوعى. ولكن شيئاً ما انقطع داخلى لحظة أن لمست قدماى الجزيرة، وفى الخمسة أيام التالية مارست أحاسيس تشبه الأحاسيس التى يفترض أن الإنسان قد مارسها قبل أن يطرد الفردوس الذى يسمى جنات عدن، وكنت كطفل فى الرابعة لا يزال فى هذه الحالة التى يعدها فرويد مصدراً لأسطورة الفردوس. لقد كنت مسيطراً تماماً على كل طاقاتى فى كل لحظة لا يوقفنى شئ عن استخدامها ولا أكل من ممارستها. كان فى استطاعتى أن أشرب طوال الليل دون أن أفقد وعيي ثم أستيقظ بعد ساعتين أو ثلاث ساعات من النوم دون أن أشعر بأى تعب. لم تكن حواسى أكثر يقظة من هذا طيلة حياتى، وعقلى لم يكن أكثر توقداً ومعنوياتى لم تكن قط أكثر ارتفاعاً. كنت أحب كل فرد، وكل فرد كان يحبنى (هذا هو التناسق الفردوسى بعينه).

وماذا كان السبب؟ أعتقد أن جزيرة الفردوس كانت تمثل تحقيقاً للأحلام التى أحملها دائماً فى روحى، ولكنى لم تواتنى الجرأة الكافية من قبل لتصويرها بشكل مفصل، حى. هذا هو النجاح (أخيراً الآلهة الحقيقية اللوكس، حتى الآن كنا نتعبد فى آلهة درجة ثانية. اغفر لنا يا رب خطايانا). كل مكوناته المختلفة مجتمعة فى عرض واحد باهر، ورؤية هذا جعلنى أسكر بشكل يفوق سكرى بكل جالونات الروم التى استهلكتها ذلك الأسبوع. هذا هو ما يعنى أن تكون ثرثاً : أن تنام فى حجرة كبيرة متألقة ذات تراس تطل على بحر أخضر شفاف بشكل لا يصدق، أن تمد ذراعيك فى كسل بجوار حمام سباحة على أن يكون عندك خادمان يلبسان معاطف بيضاء ويتنافسان من أجل امتياز خدمتك.

كل ما حولى كان شاهداً على معنى الشهرة، كان يعنى أن ثقة هادئة فى النفس قد خصت بها الروح حتى تحارب ضدج الشكوك والمخاوف التى كانت لا تزال بطبيعة الحال تراودها، وان كانت هذه الشكوك والمخاوف غير مسيطرة كل ميدان القتال كله.

لقد نظرت إلى أصحاب هذه الشهرة العالية واحببت ما رأيت (هذه كلمات الله فى العهد القديم بعد أن خلق العالم، وهى كلمات بود ورتز فى لحظات النشوة الفردسية الأرضية). لقد قست نفسى عليهم ولم أجد نفسى أقــل منهم، وتركت جزيرة الفردوس مصمماً على إلا أفكر بطريقة "فقيرة". لقد أسـكت صـوت بـروكلين الكثيـب ووصلت إلى مستوى مانهاتن فى الحياة ونمطها". يريد بود ورتز ويطلب ويتوقع، لأن عدم التوقع كما يخبرنا هو الطريق إلى عدم الطلب وعدم الطلب هو الطريق إلى عدم الحصول على أى شئ، ولذا ترك بودورتز "النـاجح" جزيرة الفردوس وهو عازم على أن يطلب (يطلب ماذا؟ حمام سباحة وجزيرة فى البحر الكاريبى؟) ثـم نفاجـأ بالكاتب ينفلسف فجأة فقد أصيب بمرض خطير لأول مرة منذ طفولته. وأثناء مرضه يكتشف أن طيلـة حياتـه يعيش فى حالة صيرورة دون أن يكون له وجود ثابت ومحدد، وهذا ما يقرر أن مقال يرفض فيه فكرة الاندماج بين الزنوج والبيض، فالمشكلة بين البيض والسود حسب تصوره لم تكن مجرد الاندماج، بل هى أعمق من ذلك، إذ أنه ثمة شئ مرضى فى علاقة السود بالبيض، شئ لا يمكن أن يخضع للتحليل العقلانى، وهى علاقـة تشـبه لذلك علاقـة أوروبا المسيحية باليهود (مرة أخرى نعود إلى هذا الجيتو الأزلى الأبدى؟ ما فائـدة الفـردوس إذا، يبدو أنه لم يحرره من شئ؟).

هنا يجب أن نذكر أنفسنا بأن فردوس بود ورتز لم يختلف فى كيفية عن مانهاتن وإنما اختلف فى كمـه وثمنه، ولذلك فالتحول لم يكن رأسياً وغنما كان تحولاً أفقياً (تماماً مثل فتوحات إسرائيل التى لا تنجز شـيئاً ولا تحقق أى سلام أو طمأنينة).

إذا كان وضع الزنوج لا عقلانياً إذا لا يمكن حل المشكلة إلا بشكل لا عقلانى عن طريق الزواج المختلط بالبيض، والنتاج هو فردوس عرقى لا أبيض ولا أسود (لوكن ما هو مكان اليهودى فى هذا ويعترف الكاتب بأنه بكتابته فى هذا المقال كان يخاطر بكل شئ، سمعته وأصدقاءه واسمه، ولكنه مثل الشهداء والقديسين والكـاوبوى يدخل النار (نار الآلهة اللوكس الدرجة الأولى) ولكنه لا يحترق بل يزداد شهرة ونجاحاً، وهو يصف هذا الوضع مستخدماً مصطلح دينياً. أن مقاله "مشكلتى الزنجية" كانت بلا شك أحسن قطعة كتبتها على الإطلاق، وقد جذبت اهتماماً أكثر من أى مقال آخر كتبته، وإن كان بعض هذا الاهتمام ليس مما يبعث على الغبطة".

ولكن هذا لا يهم بطل النجاح كل هذا برهان آخر من تجربتى أننا يمكننا أن ننال النجاح دون أن نعبـث بالنور الداخلى المقدس". ويا له من تطابق رائع بين الذات والموضوع، بين الضمير والسوق بين الله والسـلعة. حتى الراوى نفسه يتساءل رافعاً حاجبيه فى دهشة : "هل من الممكن أن النجاح قد يكون مقياساً دقيقاً إلى حد ما لمقدراتنا الداخلية فى عالم الحضارة الأمريكية؟"

إذا كانت الإجابة بالإيجاب تكون الإمبريالية النفسية الأمريكية قد قضت قضاء مبرمـاً علـى الإنسـان الأمريكى وحولته إلى شئ يقاسى. ولكن السؤال فى نهاية الأمر، ما هو النجاح الذى عنه تبحث، ما هـى الآلام والآمال؟ هجرة لله ولرسوله أم هى هجرة تجارية للحصول على الأشياء ومزيد من الأشياء؟ هذا هـو السـؤال الوحيد الذى يمكن أن يسأله البشر كبشر بالنسبة لقضية النجاح.

فإن لم يسألوه كانوا كالحيوان الأعجم الذى لا روح له. أى مثل بود ورتز الذى تعبد فى محـراب ربـه النجاح المادى والأشياء والنقود والشهرة، أو كالجبل الأصم الذى لا يستطيع أن يحمل الرسالة التى عرضـها الله عليه ويقف وسط الطبيعة مساوياً لها ليس فيه ما يميزه عنها.

٢- الإسلام كحلم البراءة الأولى فى حياة مالكولم.

من الشئ إلى الشئ، هذه هى حركة بودورتز الأفقية. ولكن مالكولم يتحرك ويتطـور بطريقـة مغـايرة تماماً.

ومالكولم هو زعيم أمريكى أسود كان اسمه الأصلى مالكوم لتل (أى مالكلوم الصغير) ولكنه غير اسـمه إلى مالكولم رافضاً بذلك الاسم الذى أعطاه إياه الرجل الأبيض، ثم غير اسمه بعد ذلك إلى الحاج مالك بعد حجه إلى مكة المكرمة حيث مارس تجربة روحية كان لها أعمق الأثر عليه. وسيرة حياته الذاتية التى نتعرض لها فى هذا المقال تمدنا بكثير من تفاصيل حياته الثرية التى انتهت حينما أغتيل عام ١٩٦٥.

أن سيرة مالكولم اكس الذاتية أن هى إلا ترتيلة تمجد روح الإنسان التى يمكنها البقاء والاسـتمرار فـى مواجهة أكثر الظروف افساداً وتدميراً. والإنسان فى مقدوره أن يحقق هذا البقاء وهذا الاستمرار لأنه يحلم دائماً بعالم من البراءة الأولى وبذا يحتفظ بقدر من النقاء الروحى حتى بعد أن يصبح أكثر الساخرين مرارة. والإسلام بالنسبة لمالكوم هو حلم البراءة هذا، فلقد زوده بإطار مثالى حرره من افتراضات وأخلاقيات مجتمعة العرقيـة، وهى افتراضات وأخلاقيات كان عليه أن يتقبلها علىالرغم من أنه ضحيتها وفريستها.

ولكن ما هو سبب اختيارى للفظ "حلم البراءة" لوصف العالم العربى الإسلامى الذى شاهده مالكولم بنفسه. وللإشارة للمعتقدات الإسلامية التى آمن بها فى نهاية المطاف؟. المملكة العربية الصـعودية والقـاهرة قائمتـان بالفعل، كما أن الحضارة الإسلامية هى حضارة خالية إلى حد كبير من أية مؤشرات عنصرية. هذه حقـائق لا نزاع فيها، ولكن الوطن العربى مع هذا ليس هو بالضبط ذلك الفردوس الذى رآه مالكولم، لأنه وطن له جوانبـه المظلمة، شأنه فى هذا شأن أى بقعة أخرى فى العالم. ولكن مالكولم، كان يتعامل مع هذا الوطن العربـى مـن منظوره هو، كأمريكى أسود، يعانى ويلات التفرقة العنصرية. ومن هذا المنظور اكتشف مـالكولم أن الـوطن العربى لا يقف فى طريق نمو الإمكانيات الإنسانية لدى الإنسان الأسود. ولذلك استطاع مالكلولم أن يجـد فـى العالم العربى الإسلامى تحقيقاً جزئياً لحلمه بالبراءة وبعالم خال من التفرقة العنصرية. أن أمريكا البيضاء – كما خبرنا هو – مجردة من مثل هذه الإمكانيات المثالية والإنسانية، فهى ذات نزعة تدميرية خالصة.

ولكن علاوة على كل هذا، إذا كان الحلم بالبراءة والمثل الأعلى فى الأدب والفلسفات القديمة، هو نسـق فكرى خال من أى صراعات أو توترات لأنه حلم لا تاريخى وأسطورى ومجرد إمكانية نظرية، فإن حلم البراءة الثورة فى العصر الحديث يضرب جذوره فى الواقع ويكتسب قوته وفعاليته من أنه ينبغ من الواقع ويعود إليـه وأنه مل فى نهاية الأمر قابل للتحقيق بشكل جزئى وحسب داخل التاريخ، أى أن حلم البراءة الثـورة لا يظـل مجرد صورة ذهنية رائعة، كما أنه ليس بواقع فردوسى قد تحقق الآن وهنا، وإنما هو رؤية للحيـاة الفاضـلة" يتعامل الثورة من خلالها مع الواقع التاريخى، ويحاول أن يحققها داخل التاريخ ذاته، ولأنه يحققها داخل التاريخ فهى لن تحتفظ بصفائها وبراءتها. والعالم العربى الإسلامى، بالرغم من كل توتراته التاريخية، كـان بالنسـبة

لماكولم تحقيقاً جزئياً لحلمه بالبراءة وبعالم يسمو على أمريكا من الناحية الأخلاقية، على الأقل فيما يختص بالعلاقات الإنسانية والعنصرية. وحين عاد مالكولم إلى أمريكا ليحاول أن يحقق رؤيته الجديدة عن طريق الفعل الاجتماعى، أظهر أنه ينتمى إلى تقليد الثوريين التاريخيين الذين يحلمون ولكنهم لا يهيمون فى الفضاء وعالم الأساطير ولا يحاولون تشييد أو فردوس أرضى، وإنما يحاولون تغيير الواقع لا عن طريق التسامى عليه أو الانفصال عنه أو تدميره كلية، ولكن عن طريق إعادة تشكيله وفقاً لرؤيتهم عن "الحياة الفاضلة" وبما يتفق مع إمكانيات هذا الواقع الحقيقية.

ويمكن رؤية بناء السيرة الذاتية ككل على أنه تجسيد لتطور مالكولم من كونه إنساناً مادياً لا روح له ولا ضمير، إلى إنسان قادر على اكتشاف "نزعات مثالية" فى نفسه. تبدأ السيرة بإشارة إلى أم مالكولم الحامل رمز واضح الدلالة على الخصوبة والحياة الجديدة والإمكانيات الإنسانية التى تريد أن تولد. وإلى جوار الأم الحامل يقف أبو مالكولم وهو واعظ ينتمى لشكل بدائى من القومية السوداء فى أمريكا أى أنه هو الآخر رمز لميلاد قومى جديد. ومع ذلك فالسطر الثانى من السيرة يتحدث عن أعضاء جماعة الكوكلوكس كلان العنصرية الإرهابية الممتطين صهوة جيادهم والذين أحاطوا بمنزل مالكولم فى الليل وسخروا من أبيه – أى أنه من البداية تحاصر قوى الشر إمكانيات الخير وتحاول إجهاضها والقضاء عليها. ولكن بقاء مالكولم وكتابته لسيرته الذاتية تقوم شاهداً على أن الإنسان يرفضه بيع روحه لشيطان العرق والمادية، وبإيمانه بتفوق ما هو ممكن على ما هو قائم بالفعل، يستطيع تحقيق الخلاص.

الجاهلية .. مرحلة ما قبل الإسلام

تواطأ كل شئ فى مجتمع مالكولم ضده وضد إنسانيته، فبعد موت الأب يأتى مندوبو الدولة والضمان الاجتماعى لتحويل مجتمع مالكولم الصغير العائلى إلى وحدات اقتصادية منفصلة، فقد نظر هؤلاء إلىأعضاء الأسرة كأرقام وكحالة مدرجة فى كتابهم وليس ككائنات بشرية "(ص ١٥٢). وتحويل الناس إلى أرقام كما اكتشف مالكولم هو ضرورة حضارية لأمريكا، لأن الدولة تستطيع أن ترسل إنساناً إلى الفضاء الخارجى ولكنها لا تعرف كيف تتعامل مع البشرية (ص ٢٦٨).

وإذا كانت العلاقة هى علاقة بين شئ وأشياء أخرى، وليست بين الإنسان وأخيه الإنسان، فإن التعامل الميكانيكى يحل محل المسؤولية الاجتماعية والحب، ويبدأ كل فرد فى محاولة افتراس الآخرين. ويتحدث الجزء الأول من السيرة عن الشهوة التى تحل محل الحب (ص ١٢١) وعن رجال بيض وسود يستغلون عاهرات بيضاوات وسوداوات، والعكس بالعكس، كما أنه يتحدث عن مجموعة المقامرين الذين يفضلون إلا يفعلوا شيئاً عن الصراع الإنسانى الحقيقى. فقد اكتشفوا فى أعماق قلوبهم أن الفعل الإنسانى، أو "العبودية" كما كانوا يسمونه، لا يفيد ولا ينفع فى أمريكا المستغلة الآلية الرأسمالية فكتاب الرأسمالية المقدس يقول افعل بالآخرين قبل أن يفعلوا هم بك (أى استغلهم قبل أن يستغلوك).

ولقد كان البلطجى هو أكثر الشخصيات دينامية، وقد لاحظ مالكولم أن البلطجى وهو نتاج التمييز العنصرى، ليس لديه موانع داخلية من أى نوع، لأنه كى يحافظ على بقائه كان عليه أن يفترس الآخرين باستمرار ويتلمس طريقه إلى نقاط الضعف الإنسانى كابن عرس (ص ٣١١). ولم يكن البلطجى فى أمريكا البيضشاء ليثق بأى فرد (ص ٨٧) إذ عليه الاستمرار فى المزاحمة ودفع الآخرين وإذا انحط الإنسان لمرتبة

البلطجى أو المقامر أو لمرتبة الشئ، فإنه يفقد ما يميزه ككائن بشرى. وتتواتر فى السيرة الإشارات إلى الإنسان على أنه "حيوان"، مما يوحى لنا بوحشية المجتمع الأبيض التى تحط مكن قدر الإنسان. ولقد وجد مالكولم أن البيض كانوا يعتبرونه فى البداية عصفور كنارى أليفاً (ص ٢٦) وبعد ذلك صار بالنسبة لهم بغلاً جميلاً ثم حيواناً أليفاً أصيلاً (ص ٣٧) وكلب بودل ودى (ص ٣١). ثم أصبح هذا الحيوان الآليف العديم الفائدة مجرد شئ طفيلى (ص ٧٥) ليصبح فى الفصل السادس نسراً مفترساً. وبالرغم من كل هذا لم يتخل مالكولم ولو للحظة عن براءته، لأنه أدرك أنه قد صار طائراً مفترساً لا بسبب شرارلى كامن فيه وإنما بسبب وجوده فى عالم الرجل الأبيض المادى المبنى على التنافس الذى يلتهم فيه الإنسان أخاه الإنسان" (ص ٢٦٧).

واكتشف مالكولم بعقله التحليلى الذكى، أن أدرك بلطجى الحى الزنجى لمثل هذا الوضع يجعله إنساناً ثورياً قوياً، إذ أنه يرى نفسه كضحية أكثر منه كمفترس، ولذا فدرجة الاحترام الذى يكنه هذا البلطجى للمؤسسة البيضاء فى أمريكا أقل بكثير من درجة الاحترام الذى يكنه هذا البلطجى للمؤسسة البيضاء فى أمريكا أقل بكثير من درجة الاحترام التى يكنها أى زنجى آخر فى شمال أمريكا لنفس المؤسسة (ص ٣١١).

بل أن مالكولم يلمح بأن المقاييس الأخلاقية لمجتمع البلطجية تعتبر بصورة ما أسمى من مقاييس الأخلاق فى أمريكا البيضاء. فالعلاقة بينه وبين صديقه شورتى البلطجى تتسم بحرارة معينة لا نجدها مطلقاً فى عالم الدولار. هذا لأن البلطجية "يكونون مجتمعاً" متآلفاً، ثم أن قانونهم الأخلاقى يعتبر متسقاً مع نفسه لأنه يطبق على السود والبيض على السواء – وهذا يعتبر قمة أخلاقية لم تصل إليها بعد تلك الولايات المتحدة.

د– بشائر البعث أو بزوغ حلم البراءة

وإذا كان حتى البلطجية قد استطاعوا الإبقاء على أرواحهم سليمة، فإن غالبية السود قد أظهروا قوة احتمال حضارية ملحوظة. فهم لم يستمروا فى البقاء وحسب، ولكنهم كانوا قادرين فى عالم المادية المطلقة هذا أن يحتفظوا بشئ من الرؤى وبالمقدرة على الحلم والتخيل. ونحن نجد فى النهاية أن ما أنقذ مالكولم هى تلك الرؤى لعالم من الجمال البرئ يعلو عالم الدولار الميكانيكى الأملس الأقرع.

ويرد أول ذكر فى السيرة لرؤى الخلاص فى الصفحات الأولى من الفصل الأول، حينما يتذكر مالكولم جيداً موعظة أبيه المفضلة التى حملها فى قلبه طيلة حياته. "ها هو ذا القطار الأسود الصغير قادم، ومن الأفضل لك أن تكون جاهزاً له" (ص٤).

قطار الخلاص آت إذن لا محالة ولا بأس من قليل من الانتظار على أن نكون جاهزين له عند وصوله. وتوضح الصورة المستخدمة مدى صلابة الإنسان الأسود فى أمريكا، إذ أنه يحول أكثر الأنشطة والأعمال مادية وأقل الأشياء شاعرية، مثل القطار، إلى رموز روحية. وتذكر مالكولم أيضاً فيما تذكر الأسطورة التى كان يحكيها أبوه ويستشهد بها : أسطورة آدرم الأسود الذى طرد من فردوس أفريقيا وحمل عنوة إلى كهف أوروبا. وكان مالكولم لا ينسى قط استعارة العاطفة القادمة التى كان يستخدمها أبوه لوصف خلاص أفريقيا (ص ٦). العاصفة لا محالة ستهب لتطهير هذه الكهوف الدنسة. وإذا كان السود عندهم مثل هذه المقدرة على رفض الوقوع فى شراك المادة، لا غرو إذن أنهم فى الكنيسة "يلقون بأرواحهم وأجسادهم فى العبادة" ص ٣٥). أن

أمريكا البيضاء لم تمح أرواحهم تماماً على نحو ما فعلت مع إخوانهم البيض، الذين، كما لاحظ – مالكولم، "كانوا يجلسون فى الكنيسة ويتعبدون بالكلمات وحسب" (ص ٣٥) – دون موسيقى أو غناء ويا له من مشهد حزين حقاً!

ولقد كانت الموسيقى والرقص هما وسيلتا الأفرو – أمريكى للتسامى على عذابه ولتحقيق ذاتية وهوية معينتين. وفى السيرة الذاتية، يؤكد مالكولم بروح ملؤها المرح أن غرائزه الأفريقية المكبوتة كانت تجسد متنفساً لها حينما يرقص (ص ٥٧). وهناك إشارات كثيرة للموسيقى والأغانى الأفرو – أمريكية والتى ترمز إلى انتصار الروح الأفرو – أميكية وإلى رغبتها فى بلوغ السماء (وتقف الموسيقى والرقص على طرف نقيض من صور الحيوانات، والتى تدل على مدى شراهة حضارة الإنسان الأبيض ورغبتها فى الحط من قدر الأفرو – أمريكى وتقييده بالأغلال والأرض بعيداً عن السماء الزرقاء).

ولا يتضح هذا المغزى الرمزى للموسيقى فى أى مكان أن السيرة أكثر من اتضاحه فى الفصل الخامس، حين يروى لنا مالكولم قصة الزنجى الذى كان يدخن سيجارة من القنب الهندى ثم سمع أغنية ليونيل هامبتون "طائر لبيتى"، فاعتقد أنه يستطيع الطيران وقفز فعلاً من شرفة الطابق الثانى وكسرت رجله. ولقد خلدت كل من حادثة "الانطلاق الروحى" المؤقت والنتيجة المأساوية المترتبة عليه فى أغنية أفرو – أمريكية أخرى ! أغنية ايرل هاينز "القفز من الشرفة الثانية (ص ٧٤)، ولكن مالكولم كان موضوعياً لدرجة تسمح له أن يرى قصور وعقم مثل هذا الطيران الفردوسى، ولكنه كان أيضاً متعاطفاً بدرجة سمحت له برؤية روعة جماله، وقد استطاع مالكولم ذاته فى مرحلة لاحقة من حياته أن يحلق فى السماء مثل "الفتى ايكاروس" (الذى حاول الطيران بأجنحة من شمع) ولكن مالكولم طار بأجنحة وهبها الله غياه عن طريق عقيدة الإسلام (ص ٢٨٧).

لقد احتفظت الموسيقى وعناصر الخلاص الأخرى فى عالم الأفرو – أمريكى بروح مالكولم وانقذته من الانسحاق تحت وطأة الأخلاق العرقية فى أمريكا البيضاء. ولكن بالرغم من أن هذه العناصر كانت تتضمن درجة من الرفض للوضع الراهن الآسن، إلا أنها لم تحرر الأفرو – أمريكى تماماً لأنها لم تزوده بحلم البراءة الذى يشكل نقداً شاملاً للحضارة الأمريكية. وكان الإسلام، هذا النسق الأخلاقى المتكامل، يشكل بالنسبة لمالكولم كلا من حلم البراءة والنقد الشامل.

جـ الإسلام

بدأت عملية الهداية إلى الإسلام بمناسك صغيرة مثل رفض تناول لحم الخنزير بينما كان فى السجن (ص ١٥٦) ومثل اعتياد الوضوء (ص ١٩٣)، ومع هذا انتهت بتبنى ثورة لنسق جديد من القيم.

تعريف مالكولم حينما كان فى السجن على الإسلام كما فسرته جماعة اليجاه محمد (التى تسمى بالمسلمين السود) ولقد آمن مالكولم بهذا التفسير وشعر بتفوقه الأخلاقى، ولكنه معهذا انفصل عن هذه الجمعية فيما بعد وتخطى افتراضاتها الأخلاقية العنصرية التى تميز بين السود والبيض لصالح السود هذه المرة، أى أنها كانت تؤمن بمقلوب العنصرية الأمريكية.

وبالرغم من مساهمة عقيدة المسلمين السود فى تحرير وإنقاد مالكولم، فقد كانت مثل عناصر الخلاص الأخرى فى حياته قبل إسلامه. عناصر قاصرة أخلاقياً ونفسياً عن تحقيق الخلاص الكامل، ولهذا السبب يجب علينا مناقشة تحول مالكولم إلى الإسلام "الحقيقى"، موضحين فى سياق المناقشة كيف تخطى معتقدات جماعة

المسلمين السود. ولقد أظهر مالكولم فهماً حدسياً للإسلام والتصور الإسلامى للخالق. ومن المعروف أن كثيــراً من المستشرقين قد درسوا الإسلام من قبل، ولكنهم كانوا راضين عن حضاراتهم تمام الرضـــا متقبلـــين لكـــن افتراضاتهم الإساسية، فى حين كان مالكولم يجتاز أزمة أخلاقية ويحلم بعالم أفضل. ولهذا السبب لم يفهم كثيـــر من المستشرقين جوهر التصور الإسلامى للخالق بعد مئات السنين من الدراسات النظرية المتعمقة والإرساليات الأوروبية، قدر فهم مالكولم له. فقد اكتشف مالكولم على سبيل المثال عدالة وعلمية التصور الإسلامى للخـــالق. والأدلة فى المسيحية عالمى واله كل البشر، ولكن مالكولم كان يعلم أنه أصبح الها مقصوراً على الرجل الأبيض وعلى الحضارة الغربية التى تخلع عليه الواناً معينة وتكسبه سمات حضارية محددة. ولقد أحس واعظ مســيحى بالحرج، حين أخبره مالكولم عن اللون الحقيقيى ليسوع والقديس بولص (ص ١٩٠). ولقد أحرج هــذا الــواعظ لأنه كان يعلم أن يسوع لم يكن أبيض البشرة ولم يكن شعره أشقر، ولكن النائس فى الولايات المتحدة حولته إلى ذلك. والخالق، حسب القصور الإسلامى، يبقى بمنأى عن التعصب الإنسانى والفروق الزائفة، فهو ليس اله قبيلة دون غيرها أو إله شعب ون آخر، إنه اله العالمين فى كل زمان ومكن ومن كل لون. ولقد وصل مالكولم لهــذه النتيجة لا عن طريق الاستنتاج المنطقى ولكن من خلال التجربة الشخصية. ففى العالم العربى الإسلامى أصـــر الناس على رؤية مالكولم على أنه أمريكى، أو ليست هذه جنسيته؟ ولقد دعاه قائد الطائرة المصرى الذى كانـــت بشرته أكثر سواداً من بشرة مالكولم نفسه، إلى حجرة القيادة باعتباره "مسلم أمريكى" وحسب (ص ٣٢٤)، وليس باعتباره مسلم أسود. وألقى عليه مسلم إيرانى التحية فى ديوانه فى القطار قـــائلاً " أميــــ ... أمريكـــى" (ص ٣٢٩). ولقد كانت دهشته كاملة وأخذ إدراكه لطبيعة الاله الإسلامى شكلاً نهائياً حينما لم يسلك الــدكتور عـــزام هذا "الرجل الأبيض" سلوك الرجل الأبيض بتاتاً (ص ٣٣١). ويكتشف مالوكولم بفزع شديد أنه كان الوحيد الذى يعانى من الإحساس بالقوارق العرقية. هذه النظرية الجديدة كانت هى علامة البدء لانطلاقه الكامل بعيـــداً عـــن القيم الأمريكية، وفى أحد أجزاء السيرة، وهو جزء له دلالة عميقة تبدأ بالإشارة إلىالصباح، يخبرنا مالكولم عن إعادة تقويمه للفظة "أبيض" وعن قفزته البطولية من الأحكام العنصرية إلى التقويمات الإنسانية الأخلاقيـــة (ص ٣٣٣)، إذ تفقد لفظة "الرجل الأبيض" محتواها العنصرى لأنه شاهد أناساً ذوى بشرة بيضاء كانوا متآخين عـــن صدق. لقد طرد مالكولم بشكل تام شيطان العرقية لدرجة أنه حين لاحظ أن الناس المتشـــابهين كـــانوا يمكثـــون سوياً، لم يرجع ذلك إلى نوع من أنواع التفرقة العنصرية وإنما اعتبره نوعاً من الفعل الاختيارى "لاناس" يوجـــد بينهم شئ مشترك يجمعهم (ص ٣٤٤).

ولقد مكنه هذا التفاعل الشخصى مع المسلمين من أن يفم المعانى الثورية للمفهوم الإسلامى عن وحدانية الله. فالبيض الذين يقفون أمام الإله الواحد ليسوا أناساً بيض البشرة وإنما كائنات بشرية كاملة (ص ٣٦٠). ولقد وقف مالكولم الأفرو – أمريكى بدوره أمام "خالق الجميع وشعره أنه كائن بشرى كامل (ص ٣٦٥). لقد استطاع الإحساس بهذا التكامل الإنسانى لأن وحدانية الله تعنى قبول وتساوى كافة البشر أمامه (ص ٣٤١).

رحب مالكولم بالنتيجة الحتمية لرؤيته الإسلامية الجديدة، ولذا رفض بعد ذلك الأسطورة الزائفـــة التـــى تروج لها جماعة المسلمين السود التى تقول أن الرجل الأبيض هو الشيطان ! أى أنه بلغ من السماحة والتحـــرر من العرقية أنه رفض العنصرية ومقلوبها، ورأى أنه لا فضل لعربى على عجمى ولا أبـــيض علـــى أســـود إلا بالتقوى والعقل الإنسانى الفاضل.

وثمة جوانب أخرى للتصور الإسلامى الخالق أدركها مالكولم فمن المعروف أنه حسب التقاليد الإسلامية لا يجوز لأى إنسان أن يرسم صورة الله، كما أن الخالق لا يتجسد فى أى شكل إنسانى، ولذا فنبنى الإسلام هو محطم "الأوثان". ويرجع هذا لأسباب ليس من الصعب اكتشافها فرسم صورة للإله هو فى نهاية الأمر فرض حدود عليه وصبغه بصبغة معينة – أن الإله الإسلامى اله شامل ويفضل أن يظل كذلك. ولقد أظهر مالكولم فطنته الملحوظة فى رفضه للإطار الأسطورى المركب، والذى ابتدعه المسلمون السود (ص ١٦٨) فلقد اعتقدوا أن الله متجسد فى إنسان نصف أبيض ونصف أسود اسمه السيد فارد ! وقد تنبه مالكولم أيضاً إلى خطورة تجسد الاله فى شخص أو فى أى صورة، وأشار إلى مخاطر تالية ما هو إنسانى. ولذا رفض مالكولم الإيمان باليجاه محمد زعيم جماعة المسلمين السود "كقائد مقدس" وآمن به كقائد بالمعنى الإنسانى المألوف.، وفى مكة فوق التل وفى حضرة الواحد الأحد أدرك مالكولم مدى خطورة الإيمان بالشخص الذى يدعى أن الله يهديه ويحميه بشكل خاص (ص ٣٧٥). ولعل رفضه لفكرة التجسد وحلول الخالق فى مخلوقاته يفسر عدم تعرضه مطلقاً فى سريته الذاتية إلى وصف شكل الله أو ما يتصوره على أنه سماته الشخصية.

واحد أحد هو، ولكنه غير غريب على الذات الإنسانية، ولذا رفض إله الإسلام أن يزود نبيه بقوى فوق الطبيعة ومن شأنها أن تنتهك مسار العمليات الطبيعية، ورفض محمد عليه الصلاة والسلام بإصرار شديد أن يستسلم إلى المغريات وأن يكون "نبياً عادياً" يملك قوى خارقة، وبقى إنساناً يعيش وسط الناس. ويخبر الله محمداً فى القرآن ما معناه أنه لو سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعانى. وكان مالكولم يردد ما جاء ذكره فى القرآن حين قال "الله يبعث لك بإشارات أنه معك حين تكون معه" (ص ٣١٩). أنه ذلك الإله الرحيم الذى كان يعرفه مالكولم فى كل مرة كان يردد فيها عبارة : "أعرف أن الله قريب"، هى عبارة يتواتر ذكركها كثيراً فى السيرة كلازمة، خاصة فى الفصل السابع عشر.

ولم يكن نبى الإسلام مجرد رسول مبعوث من قبل الله، ولكنه كان أيضاً قائداً سياسيا "لشبه الجزيرة العربية". فهو لم يقدم رؤية جديدة للحياة وحسب، ولكنه حارب من أجل تحرير العبيد وتحقيق هذه الرؤية فى التاريخ. ولذلك كان "العبد" بلال، وهومن أوائل المهتدين، تابعاً للدين الجديد ومقاتلاً فى سبيل الحرية، وبالاختصار نجد أن الفصل بين الفكر الدينى والأخلاقى من جهة وبين التطبيق الاجتماعى والسياسى من جهة أخرى ليس إحدى سمات الإسلام وهذا الجانب من الإسلام لم يغمض على مالكولم.

ويبدو لى أن هذه هى أهم النقاط التى جعلت مالكولم ينفصل عن جماعة المسلمين السود. فقد اكتشف وهو يسير بين الجماهير الأفرو أمريكية، أن هذه الجماعة كان بمقدورها أن تكون قوة ذات فعالية إن هى ساهمت بشكل أكثر فعالية فى الصراع الشامل للجماهير (ص ٢٨٩). وحينما فشلت جهوده فى إعادة تكييف الجماعة مع مقتضيات الحركة الاجتماعية، قرر ان يبنى تنظيمه الخاص الذى يقوم بتطبيق ما تنادى به جماعة المسلمين السود دون ممارسة (ص ٣١٥). لقد كان مالكولم متحمساً لإسلامه بدرجة جعلته أكثر من مجرد كاهن، فهو كان يحث على التحرك الاجتماعى، كرسول الله.

وآخر خاصية للمثل الإسلامية، والتى استطاع مالكولم أن يستشفها ويقدرها حق تقديرها، هى خاصية التجميع أو الائتلاف. ومن المعروف أن يوم الراحة الإسلامى هو يوم الجمعة أو يوم التجمع، ويقول الله فى القرآن أن يده دائماً مع الجماعة أكثر مما هى مع الفرد. وفى أول لقاء لمالكولم مع المسلمين شعر لتوه "بجو من

الدفء والصداقة" (ص ٣٢١). وإذا راعينا أنه أتى من مجتمع عرقى متنافس، نجد أن الأثر كان أشبه "بالخروج من السجن" (ص ٣٢١). ولقد أحبه الناس وقبلوه "كأخ لهم" (ص ٣٢٢) وقدموا له من طعامهم بل وأناموه فى مخادعهم. وتسأله زوجة مصرية غير قادرة على رؤية التنافس على أنه الدافع الوحيد لسلوك الإنسان تسأله هذه الزوجة فى براءة شديدة: "لماذا يتضور الناس من الجوع فى العالم، فى حين تملك أمريكا فائضاً كبيراً من الطعام؟" (ص ٣٢٢). إن الإنسان الذى يأتى من مجتمع رأسمالى مركب يعرف "الحقيقة العلمية" : ففى أمريكا يتركون الفائض حتى يتعفن، وفقاً لأحدث الأساليب التكنولوجية المتقدمة بالطبع حتى ترتفع الأسعار !

رفض مالكولم إذن أخلاقيات المجتمع الرأسمالى العرقى فى الولايات المتحدة، وفاض قلبه بحب مكة المكرمة حتى إنه ترك جزءاً من نفسه فى تلك المدينة المباركة وحمل فى قلبه جزءاً منها (ص ٣٩٤). ولكنه مع هذا رفض أن يهبط إلى أى شكل من أشكال الهروب أو الرغبة فى "العودة" الصوفية ليقيم بجوار قبر الرسول أو يستوطن فى العالم الإسلامى أو أى مكان يتصوره على أنه الفردوس الأرضى.

حمل مالكولم حلمه بالبراءة الأولى وعاد إلى قومه ليحارب معهم من أجل حقوقهم، فرفض الأفكار الانفصالية التى كانت تدعو لها بعض الجماعات القومية السوداء وتبنى مفهوماً أكثر تركيباً عن العودة إلى أفريقيا، فلقد أضحت "العودة" بالنسبة له "عودة" فلسفية وحضارية وحسب، وليست عودة جسدية فردوسية. وكانت العودة الفعلية لأمريكا على قدر مساو من الأهمية كالعودة النفسية إلى أفريقيا. وتكشف هذه "العودة" الثنائية عن التزام مالكولم بمجتمعه وبحدوده التاريخية عن طريق حلمه بالبراءة ومثله العليا الجديدة، كما تكشف عن إصراره على هوية مركبة ثنائية، كأفريقى وكأمريكى. فهو لم يكن نبياً مجنوناً يريد تحطيم كل الحدود التاريخية والإنسانية – كى يحقق فردوسا أرضياً خالصاً.

وبعد قبوله للمثل الأخلاقية الإسلامية، وبعد طرده لشبح أمريكا البضاء، استطاع مالكولم الإنسان الجديد أن يكتشف نفسه ويكتشف روحه الجميلة الحقيقية. وتصل السيرة الذاتية إلى ذروتها حين يكتشف مالكولم المتحرر، فى عالم البراءة الجديد، فى مدينة مكة المكرمة، "نزعات مثالية" (ص ٣٣٣) فى نفسه. أن هذه لصيحة بعيدة الدوى من كلب البودل الوردى، والبلطجى، الذى أرادت أمريكا البيضاء من مالكولم أن يكونه. أن تلك السيرة الذاتية هى حقاً ترتيلة تمجيد لروح الإنسان، القادرة على التحمل، بل على الانتصار.

الباب الرابع

المرأة الأمريكية بين التاريخ والفردوس

١– تمهيد :

كان من المستحيل أن أذهب إلى الولايات المتحدة دون أن يجذب انتباهى حال المرأة هناك، فقد قيل لـى أن الولايات المتحدة هى البلاد التى تحكمها النساء ويرتع فيها الأطفال، أما الرجال فهم فى مصانعهم أو مكاتبهم أو أمام التليفزيون، باختصار هم دائماً "يعملون" شيئاً ما.

حينما حملت متاعى أنا وزوجتى فى عام ١٩٦٣ وارتحلت إلى هناك، حاولت أن أعيش الأسطورة وحاولت جاهداً أن ألائم الواقع مع الفكرة (كما يفعل معظم الناس وكما أفعل عادة) ولكن دون جدوى. فلقد لاحظت زوجتى أن صديقاتها الأمريكيات مرهقات جسدياً ونفسياً وأن حياتهن يتخللها قدر كبير من التوتر نظراً لأنهن مشغولات دائماً لا يكففن عن العمل أو التفكير فى الأطفال أو فى توصيل الزوج إلى عمله أو إعداد الطعام أو الذهاب إلى عملهن – كن لا يتكلمن أبداً عن حياتهم وإنما كانوا يثرثرون عن حياة أزواجهن

وفجأة بدأت زميلاتى وأساتذتى من السيدات فى الجامعة وجاراتنا وصديقات زوجتى فى الشكوى من وضع المرأة الأمريكية. كانت أسباب الشكوى شئ مألوف، فنحن المصريون نعيش فى مجتمع يؤمن إيماناً جازماً بأن المرأة (أى مرأة) أقل من الرجل (أى رجل) فى عقلها وقوتها وتصوراتها الفكرية. وحيث أننى أقوم بالتدريس فى كلية البنات فأنا أرى بنفسى الترجمة العملية لهذه العنصرية، فكم من خريجة منحها الله عقلاً ذكياً وموهبة لا حد لها انتهت كل آمالها داخل جدران أربعة، لأن زوجها يؤمن بأن مكانها هو المنزل، وكم من طالبة متزوجة تعيش فى هلع لأنها لا تنجب ذكوراً وزوجها صاحب الحول والطول "نفسه فى ولد"، كما لو كان تحديد جنس الجنين من مسؤولية المرأة (ولو قرأ هذا الرجل المصرى بعض كتب البيولوجيا لعرف أنه هو المسؤول عن تحديد جنس الجنين) – أقول كانت الشكاوى مألوفة نظراً لأن المرأة الأمريكية هى مثل زميلتها المصرية قد وقعت ضحية استغلال مجتمع الرجال، وان كانت الظروف الاقتصادية والاجتماعية والحضارية مختلفة. ولكن على الرغ من هذا كنت ألاحظ أيضاً أنه ثمة نبرة غريبة فى شكوى من أعرف من سيدات أمريكيات، حتى كان يخيل لى أن تمردهن ليس موجهاً ضد ظروفهن الاجتماعية أو وضعهن الانتاجى، بل كان موجهاً إلى وضعهن البيولوجى ذاته، وحينما عدت عام ١٩٧٣ بعد فترة غياب دامت أربع سنوات تدعمت كل شكوكى، فثورة تحرير المرأة ذات الجذور الاجتماعية لفحتها لفحة فردوسية أتت عليها وحرمتها من بعدها التاريخى وجعلت منها تمرداً فاقد الاتجاه والمحتوى والدلالة، وبالتالى ليس له أية فاعلية اجتماعية. وقد لاحظنا أن هذا النموذج يتكرر فى معظم حركات السخط فى الولايات المتحدة، فالساخطون على الاستغلال لا يتحولون إلى تنظيم سياسى وإنما يدخنون الحشيش ويتعاطون المخدرات، وبدلاً من "الإنسان الناجح" لا يظهر "الإنسان الثورى" وبدلاً من "الإنسان ذى البعد الواحد" لا يظهر "الإنسان متعدد الأبعاد"، وإنما يظهر "الإنسان المكتئب" أو "الإنسان الفاشل" واليسار الجديد يصدر عن تحليل للواقع التاريخى ولكنه سرعان ما ينتهى إلى الفعل المباشر. وحركة تحرير المرأة فى الولايات المتحدة ليست استثناء عن القاعدة بل هى تكرار لنفس النمط والنموذج، وهو نمط لا يمكن تفسيره إلا على أساس عدم وجود تاريخ أمريكى وعدم وجود وعى به، فالوعى بالتاريخ هو فى جوهره وعى بالوجود الاحتماعى للإنسان – أى أن يرى الإنسان نفسه جزء من كل إنسانى يمتد فى الماضى. ولكنه بافتقاد هذا الوعى وهذا الوجدان التاريخيى يصبح الإنسان جزءاً من الحاضر وحسب، ويصبح مجموعة من الأحاسيس والانفعالات وردود الأفعال التى لا يضبط بها أى ضابط والتى يمكنها أن تتجه فى أى اتجاه، إذ أن المركز فى هذه الحالة

يصبح جهاز الإنسان العصبى واحتياجاته الشخصية. ولنبدأ بتحليل الجذور الاقتصادية لحركة تحرير المرأة مرجئين الحديث عن النزعة الفردوسية إلأى النصف الثانى من المقال.

٢- تحرير المرأة الأمريكية والتاريخ

يحتاج النظام الرأسمالى إلى عمالة فائضاً دائماً، نوع من البروليتارية السائلة غير مرتبطة بوظيفة محددة على استعداد للعمل فى أى مكان وفى أى وقت دون أن تصبح جزءاً عضوياً من عملية الإنتاج نفسها – أى أنها تظل دائماً داخل الإنتاج وخارجه فى الوقت ذاته. ووجود مثل هذه العمالة السائلة هام وضرورى من وجهة النظر الرأسمالية لسببين : أولا للضغط على العمال المنتظمين حتى يتمكن من إبقاء أجورهم عند الحد الأدنى الممكن. ثانياً يحتاج النظام الرأسمالى لهذه القوة السائلة حتى يتمكن الرأسماليون من نقل رأسمالهم من استثمار لآخر. ووجود فائض فى أى وقت، فلو تحققت "العمالة الكاملة" لأصبحت حركة النظام بطيئة للغاية بل ولأصبحت مستحيلة من بعض النواحى.

ويقوم المهاجرون الجدد والزنوج بسد حاجة الرأسمالية – يعدون متخلفين نوعاً لأن خلفيتهم الحضارية تعوقهم على التأقلم السريع مع النظام وعن الإسهام الكفء فى عملية الإنتاج، كما أنهم لا يمكنهم القيام ببعض الأعمال الفنية.

من هنا تكون أكثر من فريق للعمالة الفائضة فى الولايات المتحدة واحد لمختلف الأعمال اليدوية وقوامه المهاجرون والزنوج، والآخر للأعمال المتقدمة نوعاً من مثال السكرتارية والخدمات الاجتماعية وبعض الأعمال الإدارية وبعض الأعمال الصناعية الخفيفة وقوامه السيدات (وهذه العمالة الفائضة تكتسب أهمية خاصة أثناء "الحروب المحدودة" العديدة التى تخوضها أمريكا حيث تحل السيدات محل المحاربين الذكور فى غابات آسيا).

بهذاالمعنى تكون سيدات أمريكا أقلية مضطهدة مستغلة اقتصادياً، وهى مثل كلّ الأقليات تصل إلى وعى نفسها فى لحظة من اللحظات الزمنية وتبدأ فى التمرد والمطالبة بحقوقها كما فعل الزنوج والبوروتوريكان من قبل.

وقد يكون من المفيد أن نذكر أن بين مجموع المواطنين الأمريكان الذين يكسبون أكثر من ١٠ آلاف دولار يوجد ٢% فقط من السيدات، وأنه من أوائل الستينات نجد أن أكثر من نصف سيدات الولايات المتحدة يعملن "بعض الوقت" لا كله، أى أنهن على استعداد دائم لشغل أى وظائف جديدة وللحلول محل أى رجل يفصل أو يسافر لفيتنام ! ولكن حتى تتضح الصورة فى ذهننا يجب أن نذكر أن ٩٥% من الوظائف التى يزيد أجرها عن ١٥ ألف دولار يشغلها أمريكان بيض، أى أن الاضطهاد ليس جنسياً وحسب إنما اضطهاد عنصرى طبقى أيضاً. ولكن لأنه اضطهاد جنسى / عنصرى / طبقى تكون المرأة السوداء المتزوجة من الزنجى محدودة الدخل هى أكبر ضحية للاضطهاد الرأسمالى الأمريكى. وقصيدة "أغنية ليلة الجمعة" التى كتبتها الشاعرة رو آشر تعبر عن هذا الاضطهاد المركب الذى يقع على المرأة السوداء :

أركب الأتوبيس بقدماى المرهقتين المعذبتين.
حزينة أنا ... أظن أننى سأكتب قصيدة.
عن الأجور المنخفضة وسعر اللحم المرتفع.

ارفعى راسك يا فتاة – فأنت ذاهبة للمنزل.
هاأنذا ذاهبة – وزمن طويل انقضى.
والأتوبيس يجرى، يأخذنى إلى المنزل.
يا مطبخى العزيز الذى على أن أغسل أرضه حتى تصبح ناصعة البياض.
يا أطفالى الأعزاء الذين على أن أطعمهم.
يا زوجى الذى ينتظرنى الليلة.
وعندى الكثير لنقوله ... وليس عندنا الوقت.
هاأنذا ذاهبة – وزمن طويل انقضى.
والأتوبيس يجرى يأخذنى إلى المنزل.
والأتوبيس يجرى يأخذنى إلى المنزل.
قضيت زمناً طويلاً فى مدينة المدير الأبيض.
ولم أر وجه أهلى فى المكان الذى أنا راحلة عنه.
أعمل طوال الأسبوع فى المدينة الحزينة.
ولكنها الآن ليلة الجمعة وسأعود للمنزل.
هاأنذا ذاهبة – وزمن طويل انقضى.
والأتوبيس يجرى يأخذنى إلى المنزل.

وبطلة القصيدة السوداء مضطهدة أكثر من زوجها من بعض النواحى، فهى تعمل داخل المنزل وخارجه فى الوقت ذاته، وهذا ناجم عن أن خطأ ما حدث فى "تقسيم العمل" فى الولايات المتحدة (وفى معظم المجتمعات الصناعية الحديثة). فتحرير المرأة فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين الذى تم فى الإطار البورجوازى الحضارى كان يعنى حق المرأة أن تعمل خارج المنزل إلى جوار عملها داخله، ولذلك فالمرأة العاملة فى الواقع تعمل ضعف الرجل. أن النظام الرأسمالى مبنى على أساس أن المرأة تعمل فى المنزل دون مقابل مادى أو معنوى، ولذلك يقال أنه إذا تزوج رجل ما من خادمته (التى يدفع لها أجراً ويحسب عملها ضمن القوة العاملة) فإنه ينقص بذلك الدخل القومى لأنه لن يدفع أجراً لزوجته، كما أن عملها غير محسبو ضمن القوة الإنتاجية.

ومما يزيد العبء على الزوجة أن الأسرة الأمريكية "أسرة نووية" تضم الأب والأم والأولاد وحسب (على عكس "الأسرة الممتدة" التى تضم الجد والجدة والأعمام والأخوال أحياناً وهكذا). ففى إطار الأسرة النووية يجابه الإنسان أعباءه اليومية كلها بمفرده دون توجيه أو مساعدة، كما أن الأطفال يمثلون عبئاً ثقيلاً عليه لأن فى العائلة الممتدة يكوّن الأطفال مجتمعاً هرمياً خاصاً بهم يسيرون أمورهم بنفسهم ويتبادلون الخبرات والمعلومات فيما بينهم دون اللجوء إلى الكبار فى كل صغيرة وكبيرة، مما يخفف العبء النفسى إلى حد كبير.

وكملاحظة جانبية لابد وأن نشير إلى أن بناء الأسرة النووية بناء ضيق خانق، فالزوج لا يخرج إلا مع زوجته وبالتالى لا تخرج هى إلا معه. وأذكر أنى حينما كنت أود الخروج دون صحبة زوجتى كنت أجد صعوبة فى إقناع أى من أصدقائى الأمريكان البيض بذلك، وفى النهاية كنت أخرج مع صديق زنجى وآخر من أصل

يونانى. ونفس الصعوبة كانت تواجهها زوجتى فهى كانت تضطر للخروج مع سيدة من أصل ألمانى والزنجية زوجة صديقى اليونانى الأصل. وكلهم ينتمون إلى شرائح اجتماعية تسيطرة عليها تقاليد حضارية تتقبل فكرة الأسرة الممتدة. فى داخل إطار الأسرة النووية لا يمكن للرجل المتزوج إلا أن يصادق رجالاً متزوجين ولا يمكن للمرأة المتزوجة إلا أن تصادق نساءاً متزوجات وقد تبدو هذه المسألة طبيعية للغاية، ولكن نتائجها الحضارية عميقة للغاية فهى تعنى أن الزوج يحصر اهتماماته فى اهتمامات زوجته (وهذا قد يكون مقبولاً بالنسبة له لأنه يقضى معظم حياته خارج المنزل يعبر عن إنسانيته وإمكانياته) ولكن الأدهى أن الزوجة تحصر اهتماماتها فى اهتمامات زوجها، وحيث أنها تقضى كل وقتها فى المنزل فإنها تصبح عبئاً على نفسها وعلى زوجها.

وكثيراً ما كنت أسمع زوجات زملائى يتباهين أنهن يعرفن كل كبيرة وصغيرة عن أزواجهن ودراساتهم، واتجاهاتهم وأساتذتهم وتقديراتهم ... الخ، وفى الوقت ذاته لا يعرف المرء ما هى اهتماماتهن أو اتجاهاتهن أو حتى أحزانهن أو ارتاجهن، أى أنه فى إطار الأسرة النووية يحدث مصادرة جزئية لحرية الرجل ومصادرة كاملة لحرية المرأة، وهذا على عكس الأسرة الممتدة حيث يمكن للزوجة أن تنشئ علاقات مع أختها أو أمها وحتى حمايتها ويمكن للرجل أن ينشئ علاقات مع معارفه من الرجال، وكما أن مجتمع الأطفال يفيد فى تبادل الخبرات وفى الإنضاج الإنسانى، كذلك نجد أن مجتمعات الرجال ومجتمعات النساء المنفصلة تقوم بنفس الوظيفة. لكل هذا نجد أن أزمة المرأة الأمريكية كانت آخذة فى التفاقم لأنها أصبحت غير قادرة على العثور على ذاتها الحقيقية.

وقبل أن نسترسل فى ذكر بعض الأسباب الأخرى التى أدت إلى ظهور حركة المرأة فى الغرب، يجب أن نتوقف لنذكر أنفسنا أن نظام الاقتصاد الرأسمالى – شأنه شأن أى نظام اقتصادى آخر – ليس مجرد عملية إنتاجية ميكانيكية تتم خارج الإنسان وبمعزل عنه وإنما هو وضع نفسى وموقف عاطفى وتصور محدد للنفس البشرية. فالإنسان فى المجتمع الاقطاعى على سبيل المثال كان لا يرى نفسه إلا كعضو فى جماعة (ولذلك نجد أن كلمة Individual فى العصور الوسطى كانت تعنى عضو جماعة) أما فى المجتمع الرأسمالى بجميع مراحله (سواء كانت رأسمالية تجارية أو صناعية أو مالية) فإن الإنسان يصبح مجرد وحدة إنتاجية يعيش لنفسه وبنفسه منفصلاً عن الآخرين. أن الأنماط الإنتاجية المختلفة لم تهبط علينا فجأة بل طورها الإنسان بنفسه وابتدعها. وهو أثناء ممارسته التاريخية تلك قد صنع نفسه وابتدعها، أى أن نمط إنتاجى يستند إلى تصور محدد للنفس البشرية وتطورها – تصور هو ذاته ثمرة هذا النمط الإنتاجى – لذلك يكون من الأفضل إلا نسأل السؤال البيزنطى التقليدى عن البيضة والفرخة أو عن الواقع الاقتصادى والإنسان أيهما يسبق الآخر، بل نرى أنه ثمة علاقة جدلية تربط الواقع الاقتصادى بالافراد الذين يعيشون فيه وإنه إذا كان الواقع الاقتصادى مسؤول عن وجود الأفراد على هذه الصورة، فالأفراد هم أيضاً المسؤولون عن وجود الواقع الاقتصادى على هذه الصورة. وحيث أن الإنتاج مرتبط بنموذج إنسانى محدد نجد أن نمط الإنتاج الرأسمالى مسؤول عن كثير من السمات التى تسم الإنسان الأمريكى. فالأسرة النووية التى أشرنا إليها لم تنشأ مصادفة وإنما هى ترجمة اجتماعية لمحاولة تنشئة الإنسان الرأسمالى الفرد المنفصل عن الآخرين، ولذلك فلتهدم الأسرة الممتدة حتى تخلق التربية التى تسمح بسهولة بيع العمل الإنسانى وانتقال رأس المال فى دينامية عمياء لا تقف فى طريقها أى تنظيمات اجتماعية متخلفة ! وقد يسبب هذا الانفصال الكثير من الألم الإنسانى، ولكن ليست هذه هى القضية. والرأسمالية أيضاً هى

المسؤولة عن ظهور الإنسان الاستهلاكى الذى يصاب بالسعار فيصبح كالشفاطة التى تريد ابتلاع كل شئ كبــر حجمه وغلا ثمنه. ولإرضاء هذا السعار الاستهلاكى تشترى الزوجة ثلاجة ضخمة (أضخم من ثلاجة الجيران) وتضطر أن تترك أسرتها لتعمل لسداد الفاتورة فتتهدم الأسرة ويزداد التوتر فى حجمه زيــادة تتناســب تناسـباً طردياً مع حجم الاستهلاك.

وليزادة السعر الاستهلاكى تطلق الرأسمالية قوى الإنسان الجنسية من عقالها، كما بينا من قبــل، وهــذا الإنسان الاستهلاكى هو الترجمة العملية لمبدأ اللذة الكمى البوجوازى الذى يعرف السعادة على أنها إرضاء أكبر قدر ممكن من الرغبات لأكبر عدد ممكن من الناس ! أن هذا الإنسان يعيش داخل نفسه منفصلاً عن الآخــرين وعن تراثه، ولذلك فهو يعيش فى الجسد يبحث عن المتعة المباشرة التى لا علاقة بها بــالخير أو بالشــر. وإذا أحس بالاغتراب فه يهزم اغترابه بإنشاء علاقة جنسية، فالعلاقة الجنسية وســيلة مباشــرة وســهلة وملموســة للاتصال بالآخرين. ولأنه يدور حول نفسه تصبح الأسرة أمراً غير هام، فاهتمامنا بالأسرة ينبع من إيماننا بــأن الوجود الإنسانى وجود جماعى وأن الأسرة هى المكان الذى نتوارث فيه القيم الجماعية التى كد الإنســان عبــر تاريخه للوصول إليها، وهو المكان الذى نكتسب فيه هويتنا الاجتماعية والتاريخية والإنســانية ونعــدل ونشــكل هويتنا الطبيعية الفجة بالتدريج وبأقل قدر ممكن من الألم.

هذا الموقف من الجنس أثر ولا شك على بناء الأسرة وزاد من تحللها بل ويهددها بالاختفاء تماماً، ممــا أضعف من دور المرأة التقليدى كزوجة وأم الأمر الذى يجعلها تبحث عن دور آخر لها.

وإذا كان الموقف الاستهلاكى من الجنس قد أضعف من دور المرأة التقليدى فإنه يلقى على كاهلها عبئــاً من نوع جديد، فأينما تفتح التليفزيون الأمريكى تجد إمرأة نصف عارية تبيع لك شيئاً مــا. وهــذا يصــعد مــن توقعات الرجل الأمريكة بالنسبة للجنس والمتعة التى يتوقعها. وتبدأ الأمور تختلط فى ذهنه ويتوقع من زوجتــه أن تصبح مارلين مونرو أو إحدى آلهات الجمال البورجوازات (ويحاول هو جاهداً بالتالى أن يصــبح مــارلون براندو) مما يسبب الكثير من عدم الاطمئنان والإحباط للزوجة. وتساهم الشركات المنتجة لأدوات التجميل فــى تصعيد توقعات الذكور من الإناث فتضطر الإناث للاستهلاك. وممــا يجــدر ذكــره أن اســتهلاك الأمريكــان لمستحضرات التجميل يبلغ ما يزيد عن ٤ بليون دولار. ولعل هذا الجانب من الحضارة الأمريكية هو الذى يفسر ثورة السيدات العارمة على أدوات التجميل والرموش الصناعية والمساحيق على هذه الصــناعات التــى تعمــل جاهدة على إقناع المرأة بالتحول إلى شئ جميل "يثير الرجل جنساً". ولعل من أجمل قصائد السخط التى كتبــت عن هذا الموضوع قصيدة "الفتاة السلعة".

الفتاة الجميلة كالسلعة.
تباع وتشترى مع أسهم الشركات.
حينما ترتفع الأسعار فى السوق.
احسب أسهمك.
فيما ترتدى من ملابس.
لأن هذا هو مصدر الربح.
الفتاة الجميلة فى هذا المجتمع.

يحكم عليها حسب المظهر وحسب.
أن ما ترى على وجهها.
يكون فى الغالب بقايا.
المواد الكيماوية التى يستخدمونها فى الحروب.

أن البيت الأخير يدل على إحساس الشاعرة بأنه ثمة تكامل فى بنية المجتمع الإمبريالى الأمريكى المسؤول عن إنتاج النابالم ومسحوقات التجميل. ففى كلتا الحالتين نجد أن الهدف من عملية الإنتاج هو الإنتاج ذاته بحيث يدخل المجتمع دائرة الإنتاج الآخذة فى الاتساع اللانهائى، ولضمان هذا تدخل الرأسمالية حروباً محددة مع الشعب الفيتنامى تستهلك فيها الآلاف الدبابات والطائرات والغازات السامية والأمريكان، وتدخل أيضاً حروباً غير محددة مع الشعب الأمريكى والمرأة الأمريكية بالذات. وتستهلك فى هذه الأخيرة ملايين السيارات والمسحوقات والثلاجات والاستقرار والهدوء النفسيين. بل إننى أرى أن هذه "الإمبريالية النفسية" يمكنها أن تحقق أرباحاً للرأسمالية الأمريكى دون معارك حربية فى الخارج، ويمكن توسيع رقعة السوق الرأسمالى لا عن طريق الانتشار الأفقى فى الخارج بل عن طريق الانتشار الرأسى الداخلى وتصعيد السعار الاستهلاكى. ولكن كما فشلت الإمبريالية العسكرية فى فيتنام لأن العسكريين الأمريكيين لم يكن عندهم تصور كاف عن مدى صلابة الشعب الفيتنامى ومقدرته على الكفاح والنضال، نجد أن الإمبريالية النفسية هى الأخرى آخذة فى الفضل لأن الإنسان الأمريكى والمرأة الأمريكية فى نهاية الأمر إنسان مكون من جسد طبيعى ووعى تاريخى وليس شيئاً "طبيعياً كهذا" بعد واحد، ولذلك إذا عومل على أنه شئ جميل "يثير اللذة الجنسية" فإنه يثور ويحتج ويلقى بالرموش الصناعية والنهود البلاستيك فى وجه مستغليه ! وهذا الجانب من حركة تحرير المرأة جانب إيجابى ولا شك لابد وأن نستفيد منه وأن ندرسه ونحاول تطبيقه على مجتمعنا، فهذه الحركة تنبهنا إلىأنه لابد من إعادة تعريف دور المرأة ووظيفتها فى المجتمع الصناعى (ونحن على عتبات المجتمع الصناعى الحديث إن لم نكن وقد وصلنا له بالفعل). فدرو المرأة كما نعرفه الآن ليس نتاج واقعنا وإنما هو استمرار لواقع قديم متناه فى القدم حين كانت القوة العضلية عنصراً أساسى فى عملية الإنتاج، أما فى المجتمع الصناعى فالقوة العضلية ليست مطلوبة على الإطلاق وإنما الأمر اللازم توافره هو مقدرات عقلية معينة يكتسبها الإنسان عن طريق التعلم، وهذه المقدرات والخبرات يمكن توافرها للمرأة قد توافرها للرجل. ولابد وأن يتيح المجتمع الانسانى الفرصة للمرأة الموهوبة أن تخرج لتحقيق كل امكانيتها ، كما انه لابد وان نعيد تقومها موقفنا من تصورنا للعمل فيجب على الرجل والدولة والمجتمع ان يعترفوا بان العمل في المنزل هو عمل منتج وانه ان لم تقم به الزوجة سيقوم به شخص آخر في ساعات عمل محددة ونظير اجر محدود . هذا لا يعني انه على الزوج او الدولة ان تقدر للزوجة اجر نظير عملها في المنزل ، لان تحديد مثل هذا الأجر صعباً وغير مستحب (كيف ستحدد فعلاً اجر زوجة المدير وزوجة العامل ؟) وانما يعني تغييراً في موقفنا النفسي من المرأة ووظيفتها ، ويالتالي حينما يعود الرجل الي منزله انه لا يسخط باعتبار انه كان " يعمل " بينما كانت زوجته في المنزل وانما سيخفض من صوته قليلاً لانه بينما كان زوجته يعمل كانت زوجته هي الأخر تشقي وتكد ، ترضع الأطفال وتغسل السحون وتتسلق السلالم وتشتري الخضار وتطبخه وتحكي القصص للأطفال وتعطي من ذاتها وكيانها له ولاولادهما . ولعل فكرة اعادة تحرير تعريفنا للعمل قد يهدىء من بال كثير من السيدات اللائي يجدن انفسهن مضطرات للخروج من المنزل للعمل في وظيفة ما كي يكسبن احترام ازواجهن ، على الرغم من ان هذه الوظيفة قد لا تكون خلاقة

او ممتعة ، كأن تعمل المرأة في الارشيف او في مصنع او أي عمل روتيني أخر لا يعادل باي حال عملها كـــأم وربة منزل وزوجة ، ولكنها تجد نفسها مضطرة لذلك لان عملها في المنزل لا يحسب كعمل .

وتطالب حركة تحرير المرأة الحكومة الأمريكية باعتماد ميزانية كبيرة لانشاء دور حضانة جيدة للامهات العاملات (وهو طلب رفضته الحكومة التي تنفق البلايين في فيتنام وعلى إسرائيل ، رفضته بحجة الحفاظ على بناء الاسرة !) كما تطالب الحركة ايضاً باعطاء اجازات حمل وولادة ورضـــاعة وتربيـــة لـــلام ، وان تتـــاح الفرصة للام الموظفة ان تأخذ اجازة طويلة حتى تنتهي واجباتها الانسانية تعود بعدها للوظيفة طول الوقــت او بعضه ان شاءت ، والا تعاني من التفرقة بينها وبين نظرائها من الرجال لانها تقوم بواجباتهـــا الانســـانية . ولا تزال بعض هذه الاقتراحات شعارات ومطالب ثورية ، وهي شعارات ومطالب اعتقد انه قد يكون مـــن المفيـــد تنفيذها او تعميمها في بلادنا حتى لا ندع الأمور تصل الي درجة الازمة ، وحتى نحافظ علـــى كيـــان الاســـرة المصرية دون ان نقمع انسانية المرأة / الزوجة / الأم . ولعل برنامج جماعة ناو (الآن ــ اختصار " المنظمة القومية للنساء " " ناشيونال اورجانيزا فوروبمن ") مثل طيب على هذا النوع من المطالب النسائية المحددة التي يمكن ان تخضع للنقاش وللتقويم زللأخذ والرد والتنفيذ . وتطالب الجماعة بالتالي :ــ

١- تعديل الدستور لكي ينص على المساواة في الحقوق .
٢- تنفيذ القوانين الخاصة بالغاء التفرقة بين الجنسين في العمل .
٣- اجازات للولادة .
٤- استقطاعات من الضرائب نظير تكاليف العناية بالمنزل والاطفال .
٥- انشاء حضانات للاطفال .
٦- نظام تعليمي يتسم بالمساواة وعدم التفرقة .
٧- اتاحة الفرصة للسيدات الفقيرات ان يتدربن مهيناً وعلى ان يمتحن اعانات .
٨- حق المرأة في التحكم على الانجاب .

ولكن لابد وان اضيف انه حتى لو نفذت هذه الاقتراحات في الولايات المتحدة فالمشكلة لـــن تحـــل اذ ان الخلل في المجتمع الامريكي خلل جوري ، خلل في ايقاع المجتمع ذاته ، وفي نمطه الانتـــاجي وفـــي طريقـــة استغلاله للمصادر وطريقة توزيعه للثروة . ولن يحل هذا الخلل الا نمط جديد من العلاقات الانتاجية الانســـانية التي ستحاول ترشيد الانتاج وتوجيهه بما يتناسب مع الحاجات الانسانية الفعلية للشعب الامريكي .

٣ ــ تحرير المرأة الامريكية والفردوس

رغم ان الناس سواسية كسنان المشط ، ورغم انه امام الله لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوي ، الا انه يوجد العربي والعجمي ، والابيض والاسود ، والطريل والقصير ، والصبور والطموح ، ومن يجب دراســـة العلم من يفضل التأمل النفسي ، ومن يعشق البحر ومن لايطيق رؤايته ، ومن يحب السكني في دمنهور ومن لا يرضي بمصر الجديدة بديلاً .

خلقنا الله جميعاً كما خلق الذكور والأناث ، وهذه ليست تفرقة ذات مضمون اجتماعي واقتصادي زائما هو مجرد تمييز بين سمات الواقعة المختلفة متساوية ، واعتراف أن مكونات الواقع ليست متشابهة وانما متعددة ومتنوعة . والحمد لله اننا لا نعشق البحر كلنا وان بعضنا يرضي بديلاً عن مصر الجديدة ، والا لاكتظ البحر واضحي مثل الأرض ولازدحمت مصر الجديدة بسكانها واصبحت مثل وسط البلد والعياز بالله . ان التنوع هو سمة الوجود الانساني التاريخي ، واي محاولة لالغاء التنوع او تجاهله هي محالوة فردوسية تدور في اطار الاساطير او البدئل المستحيلة ! ومما لا شك فيه ان بعض المجتمعات تحاول اعطاء مضمون طبقي اقتصادي لهذه التمييزات ، كان يصبح البياض هو علامة انتماء لطبقة ما والسواد علامة على الانتماء لطبقة اخرى (كما هو الحال في روديسيا وجنوب افريقيا واسرائيل والولايات المتحدة) الا اننا جميعاً نرفض مثل هذه التفرقة وان كنا لا ننكر وجود الاختلافات بين الجنسين . وحركة تحرير الزنوج في الولايات المتحدة تطالب بالمساواة الاقتصادية السياسية والدينية ولكنها تناضل في الوقت ذاته من اجل استقلال الزنوج الحضاري والنفسي عن الولايات المتحدة ، وهذا علامة نضوج الزنوج في الولايات المتحدة ، لان الالغاء الكامل لكل الفروق بين البشر امر لن يتحقق الا في الفردوس باذن الله خارج التاريخ ، وعلى من ينشد الخلاص داخل التاريخ ان يتقبل جدلية الواقع الانساني كحقيقة قائمة وكامكانية كامنة ، وان يتخلى عن احلامه الرومانتيكية بالفردوس الارضي الذي لا تحده حدود ولا سدود . ومع الاسف نجد ان التفكير الفردوسي يسيطر سيطرة كاملة على بعض القطاعات في حركة تحرير المرأة في الولايات المتحدة ، فرغم ان جذور المشكلة واضحة ورغم انه يمكن الوصول لبعض الحلول الا اننا نجد تياراً فردوسياً يتخطي كل حدود التاريخ وامكانياته الحقيقية ويؤدي بحركة تحرير المرأة الي الانحدار الي المهاترات والشذوذ والتجريب اللاعقلاني .

وكما بينت من قبل ان عدم وجود وعي بالتاريخ في الولايات المتحدة هو الذي يؤدي بكل حركات السخط الي ان تتجه هذا الاتجاه الفردوسي (والامريكيون بالفعل يتسمون بقدر غير انساني من البراءة وكأنهم لم يسقطوا من الفردوس ولم يذوقوا من شجرة المعرفة بالخير والشر) ولذلك فهم حينما يتصورون الخير فهم يتصورونه خيراً خالصاً ويحلمون بالفردوس الارضي ، وحينما يتصورون الشر فهم يتصورونه هو الاخر شراً خالصاً .

هذه البراءة الامريكية هي التي تؤدي بالامريكيين الي التطرف ، وهي براءة يشجعها النظام الاقتصادي لانها تبقي الانسان بمعزل التفكير الجماعي السياسي الايديولوجي وتفتت الواقع السياسي الي قضايا معزولة بعضها عن بعض . فهذه قضية جماعات المقامرة في بلدا كذا ، وتلك قضية ووترغيت .

وهذه قصية رشوة البوليس في نيويورك وهذه مشكلة عصابات المافيا وتلك مشكلة الزنوج وهكذا ، بدلاً من رؤاية كل المشاكل على انها تعبير متنوع عن ظاهرة واحدة وهي الرأسمالية الامبريالية الاستهلاكية .

وهذه البراءة وعدم التحدد التاريخي هو الذي يخلق مشكلة هوية بالنسبة لكل الامريكيين ، فالامريكي يقضي حياته يسأل نفسه دائماً من انا لان المجتمع لم يضع له تعريفاً ولم يلصق به بطاقه تخبره عن اسمه وهويته وانتمائه الطبقي وجذوره التاريخية وتوقات الناس منه ، بل تتركه حراً غير منتم في مجتمع مفتوح يتحرك بسرعة خرافية (هذا على عكس المصري الذي يقضي حياته محاولاً ان يثبت للجميع ان له هوية فردية مستقلة ، وان البطاقة التي لصها عليه المجتمع ليس مطابقة تماماً لواقعه النفسي الفردي ولطموحه وآماله) .

والمرأة الامريكية عندها ازمة هوية لنفس السبب ، ولذلك فهي الاخري تسأل نفسها هذا السؤال الميتــافيزيقي :. من انا ؟ وهو ميتافيزيقي لانه سؤال مجرد لا اجابة له ، لان الانسان ، أي انسان، ليس شخصا واحدا وإنما هــو عدة أشخاص فهو مواطن وفرد وزوج واب ومدرس ، ودوره كمواطن قد يتناقص مع احتياجاته كفرد ، وسعادته كزوج تتناقض مع وظيفته كمدرس وهكذا، ان طريقة طرح السؤال تضع المرأة الامريكية في طريــق مســدود لأنها تجرد المرأة من أي سياق تاريخي ، ولذلك نجد أن الكثير من مفكري تحرير المرأة ينزلقون إلي تعميمــات مضحكة في تجريدها.

ونلاحظ أن موضوع الطلاق يتكرر في كتابات مفكري حركة تحرير المرأة ، فجلوريا ســتانيم تــرفض الزواج ، وتشير الي أن ابويها اليهوديين قد طلقا وهي بعد في سن العاشرة، أما آن فريدمان ، التي نشــأت فــي عائلة يهودية ، والتي شبهت كتاباتها بكتابات أنبياء العهد القديم ، فهي الاخري قد طلقت من زوجها ، وروبــي مورجان تقرر أن تصبح انسانا كاملاً وتطلق زوجها وهكذا وهكذا. وهذه ليست مجرد اشارات لاحداث خاصة لا يصبح الخوض فيها ، وإنما هي اشارات ذات طابع ايديولوجي تشير الي رفض جذري لمفكــرة الــزواج – لأن هذه المؤسسة ، حسب تصورهن ، خلقت لنصف انسان وحسب ، وحينما يتحول الانسان النصف إلــي الانســان الكامل تبدأ المؤسسة في التحلل . بل أن جلوريا ستانيم ترفض انجاب الأطفال ، كما نفاجأ بمقالات عديدة علــي الإجهاض كما لو كان الإجهاض أمراً طبيعياً والولادة هي الأمر الشاذ – وإلا بماذا نفسر تلك المقالة التي تــذكر أن الاجهاض الشرعي في المجر لا يسبب إلا نسبة ضئيلة من الوفيات (واحد في الألف) ثم تقارن هذه النســبة بنسبة الوفيات الناجمة عن الولادة في الولايات المتحدة ؟ ثم تضيف المقالة احصائية اخري مفادها أن الولادة في أحسن الظروف تزيد أربع مرات في خطورتها عن عملية أجهاض تتم بشكل علمي! في هذا المستنقع الانســاني نجد مقالا واحدا في مجلة مز (وكلمة مز هي كلمة محايدة حلت محل كلمتي " مس" و " مسز" ولا تدل عما إذا كانت الأنثي متزوجة أم لا وفي هذا مساواة بالرجال) عن ضرورة إطعام الرضيع بالثدي . ولكن المدهش فــي الموضوع أن كاتبة هذا المقال تدافع عن الإرضاع الطبيعي لا لأنه تحقيق لإنسانية المرأة كأم وإنما تدافع عنــه لأنه يعطي المرأة لذة عابرة ! أي أنها تعود مرة أخري لمبدأ اللذة النفعي. بل أن رفض الزواج هو فــي نهايــة الأمر رفض لإنجاب الأطفال ورفض للدخول في أي علاقة إنسانية ذات عمق والإكتفــاء بالحظــات العاطفيــة العابرة أو كما سمته أحدي الزعيمات " غراميات أو زيجات قصيرة" ، وفي هذا فشل لفهم طبيعة الزواج ، هــذه التجربة المستمرة وليست العابرة ذات العمق المعين . وربما هذا ما عنته جلوريا ستانيم حين صرحت بأنهــا لا تؤمن بالحب ، فنحن لا نؤمن بالحب إلا إذا آمنا بالانسان وبإمكانية الثقة في الآخرين والاحتماء بهم والاعتمــاد عليهم . أما إذا كنا بورجوازيين ، أفراد مستغلين منفصلين ، فنحن نعيش في حالة قلق من الأغيار نفترســهم أو يفترسوننا ، وإذا ما دخلنا علاقة حب فستكون علاقة إفتراس ونهم أيضا ، تعطينا أكبر قدر ممكن من اللــذة دون أي ألم.

ولعل هذا البحث عن اللذة الجنسية الخالصة الفردوسية (وهي فردوسية لأنها لا تبحث عن الاســتمرار وترفض الارتباط الدائم كما تحاول تحاشي أي نتائج اجتماعية مثل الزواج أو الأطفال)هو الذي يفســر إنتشــار الشذوذ الجنسي في المجتمعات الرأسمالية الغربية ، وهذه ظاهرة لا يمكن تفسيرها إلا علي أساس ايــديولوجي . فكل مجتمع فيه شواذه ، ولكن الشذوذ في المجتمع الغربية قد زاد الي درجة أصبح معها يشكل ظاهرة (يوجــد

في الولايات المتحدة الآن ما يزيد عن أربعة ملايين من الشواذ بل يوجد لهم بعض الكنائس التي يديرها وعاظ شاذون جنسيا مثل كنيسة لوس أنجلوس ، وقد أنشئ مؤخراً معبد يهودي للشواذ!) .

واعتقد أن الشذوذ هو النتيجة المنطقية والترجمة الوحيدة الأمينة لمبدأ اللذة النفعي ، فالإنسان الشاذ يمكنه أن ينشئ علاقة مع شخص آخر من جنسه فيتغلب على إغترابه بشكل مؤقت ثم يعود مرة أخري لحياته الاستهلاكية البسيطة . وهو يتغلب على أغترابه دون أن يدخل في علاقات ذات اثار اجتماعية تضطره للدخول في علاقة حقيقية مع الآخرين ومع الواقع ، أن العلاقة مع شخص من نفس الجنس هي اقل العلاقات الانسانية جدلية . وحينما كنت في نيويورك لاحظت أن الشواذ من النساء اصبح لهن وجود ملحوظ، وهذا تطور جديد لأنه قبل ذلك كان الشواذ من الرجال وحدهم هم المصرح لهم بالظهور . وسبب هذا " التطور" أو " التقدم" ولاشك يعود لحركة تحرير المرأة التي ينادي بعض زعمائها بأن المرأة الشاذة جنسياً هي المرأة التي إستغنت كلية عن الرجال ، ولذا فهي أكثر النساء تحرراً وهي المرأة التي حققت داخل التاريخ المساواة البيولوجية الكاملة مع الرجال ، وحققت بذلك الاكتفاء الذاتي. لقد قالت أحدي مفكرات الحركة حركة تحرير المرأة هي النظرية : والمساحقة هي التطبيق.

وما نفتقده هنا في كل هذه المناقشات هو مفهوم للطبيعة البشرية كما ظهرت بشكل معين عبر التاريخ وكما أوجدتها الممارسة الإنسانية . فالمرأة المساحقة من وجهة النظر المنطقية المجردة هي بالفعل إمرأة مستقلة استغنت عن الرجال ، ولكن هل هذا هو نموذج المرأة الذي توصلنا اليه من خلال ممارستنا التاريخية ؟ أم أن هذا نموذج مصنوع ميكانيكي ملفق منطقياً (نموذج بلاستيك) تم تجريده والوصول إليه من واقع رأسمالي متعفن يرى الانسان شيئاً وحيدا غير قادر علي الحب أو علي التسامي ؟ أن المرأة كما نعرفها تتزوج من رجل ، والرجل كما نعرفه هو الانسان الذي يتزوج من أمرأة وينجبا اطفالا. فنلقرأ كل الاساطير وكل الكتب المقدسة ولننظر إلي كل عادات وممارسات مجتمعات العالم نجد مصداقا لرؤيتنا البسيطة . ولكن مفكري حركة تحرير المرأة . شأنهم شأن المهيمنين علي النظام الرأسمالي ، يبتعدون عن أي مفهوم للطبيعة البشرية التاريخية حتي يمكنهم فرض أي تلفيقات فلسفية منطقية ، وحتي يمكنهم القضاء علي أي إمكانية للتسامي.

ولعل هذه التلفيقية المعادية للتاريخ تظهر في إستخدام حركة تحرير المرأة للحقائق العلمية ، فكثير من مفكري الحركة يرفضون عبارة فرويد " أن صفاتنا التشريحية هي قدرنا ". وهم محقون في هذا فهذه مقولة غيبية ولا شك تجعل الانسان حبيس جسده ، وتقضي بالتالي علي امكانيات الجدل، إذ إنها تنفي تقاليد البيئة والتاريخ والإرادة الإنسانية وتجعل الإنسان عنصرا واحداً وهو جسده الطبيعي. إن عبارة فرويد فيها ضرب من الغيبية والحتمية العلمية التي تنبع غيبيتها من تجاهلها لمكونات الواقع الانساني الذي لا يمكن للعلم حصرها والتعامل معها بشكل متكامل.

ولكننا مع هذا نفاجأ بأن أدب ثورة تحرير المرأة ملئ " بالحقائق العلمية " والإحصائيات (مثل الإحصائيات عن الإجهاض) التي يلخصون منها الي نتائج عديدة متجاهلين الواقع الإنساني التاريخي الذي هو من أهم العوامل ، كما كان يفعل مفكرو البنتاجون وهم يلقون بقنابلهم فوق فيتنام متناسين العنصر الإنساني التاريخي الذي كان يزيد من صلابة الفيتكونج كما كانت تزداد ضحاياهم . واكبر دلالة علي هذا التفكير العلمي المعادي للتاريخ هو المحاولات اليائسة التي يبذلها بعض مفكري الحركة للتدليل علي المساواة البيولوجية بين

الرجل والمرأة (ولنلاحظ أن البحث هنا ليس عن المساواة الاجتماعية والاقتصادية أو حتي النفسية وإنمــا هــي المساواة البيولوجية ، أي أننا تخطينا كل حدود التاريخ تماما). وقد قرأت مقالا " علميا " كتبته عالمة اكتشفت أن للرجل " عادة شهرية " تماماً مثل النساء فقد أثبتت مع أخرين أن نسبة الهرمونات تزيد في البول عند الرجال كل شهر ، كما لاحظت أن الزيادة يصاحبها تقلبات في المزاج. ثم تضيف الكاتبة قائلة أن هناك تقلبات يومية عنــد الرجال (هل هي العادة اليومية ؟) . وتدليلاً علي صدق مقولتها تشير إلي أن أحدي شركات السكك الحديدية في اليابان تقبلت هذه " الحقيقة العلمية " ولذا كان يوضع جدول العمل حسب تقلبات المزاج مما نــتج عنــه تقليــل الحوادث والحمد لله. وقد تكون حكاية الهرمونات هذه صحيحة ، وقد يكون فعلا أننا معشر الرجال ينقلب مزاجنا يوميا، ولكن إذا كانت الظاهرة تتكرر يوميا أصبحت جزءا من إيقاع حياتنا اليومي ، ويبدو أننا بنينا حضــارتنا الانسانية علي هذا الأساس ، وعلي العلماء أن يكتشفوا علاقة إيقاع الحضارة الانسانية بهذا الايقاع البيولــوجي . أما بخصوص " العادة الشهرية " فمما له دلالته أن كاتبة المقال كان عليه أن تشير إلي شركة في اليابــان ، وأن تقاس عن طريق جداول خاصبة نسبة الهرمونات وأن تكتب المقال وأن تقصه لي صديقة في أمريكا وترسله لي حتي أتعظ وأسكت . ولكن السؤال الذي يجب أن نسأله دائما هو مدي علاقة " الحقيقة العلمية " المجردة بسلوكنا اليومي كبشر نشقي ونسعد ، فإن لم يكن لها علاقة فإنها تموت من وجهة نظر الإنسانية اليومية وتصبح مســألة يهتم بها المتخصصون وحدهم . خمسة أمتار أو حتي خمسة كيلومترات كما هو معروف فهذا لــن يزيــد مــن سعادتي ولا من شقائي بل ستظل هذه الحقيقة شيئاً طريفاً خاليا من أي مضمون إنساني تقرأ عنه فــي " صــدق أولا تصدق" – تماما كأن نعرف أن القنفذ لا يعاشر زوجته إلا ساعة الغروب (وهذه حقيقة علمية طريفة الفتها لتوي من أجل المناقشة ولا أعرف إن كانت صادقة أم لا ، كما لا يهمني أن أعرف ، لأن حياة القنفذ الجنســية هي شئ يهتم به هو وحده وبعض علماء الحيوان المختصون في حياته الجنسية).

ولكن إذا جاء أحد العلماء وبناء علي هذه الحقيقة المصمته إكتشف دواء معينا أو ترجمتها إلــي حقــائق تمس حياتي اليومية. تصبح هذه الحقائق إنسانية ذات بعد اجتماعي . أن اكتشاف زيادة الهرمونــات فــي بــول الرجل مسألة ذات أهمية حيوية للعلماء وحدهم لأنها لا تؤثر في سلوكنا اليومي ، وحتي إذا أثرت فهي لا تشــبه من قريب أو بعدي التحولات البيولوجية التي تطرأ علي الإناث . فالعادة الشهرية عندهن ينجم عنها تغيير فــي الايقاع اليومي وفي مزاج . أن اليمين حتمي في رؤيته حينما يقرر أن صفات الإنسان التشــريحية ، وبالــذات صفات المرأة ، هي قدره . ولكن حركة تحرير المرأة باعتمادها غير التاريخي علي الحقائق العلمية المجردة تقع في نفس الحتمية العلمية (وهي حتمية يقع فيها كثير من اليساريين الطفوليين العمليين الذين ينظــرون للإنســان علي أنه ظاهرة علمية ، كما لو كان الإنسان جزءا من الطبيعة وحسب وليس له وجود تاريخي مستقل عنهمــا ، وهم في تصورهم الساذج هذا يشاركون الفكر الفاشي في أهم مقولاته دون أن يدروا).

كل ماتفعله هذه السيدات الثوريات هو توزيع الحتمية التشريحية علي كل الناس ذكوراً كانوا أم إناثاً . إن صفاتنا التشريحية هي مجرد امكانية بيولوجية محايدة تشكل الاساس المادي للحياة بكل تنوعاتها، ولكــن حياتنــا ليست مشروطة بهذا الأساس. فهذه الصفات الفسيولوجية يمكن تطويعها وتوجيهها بأية طريقة للخيــر و الشــر ،فقواتنا الجسدية يمكن كذلك أن تصبح أداة للخير ويمكن كذلك أن تصبح أداة للشر، وصفات المرأة التشــريحية يمكن أن تكون مبرراً لإستغلالها (كما يحدث الآن) ولكنها تصلح أن تكون أساساً لتقسيم عادل وعقلاني للعمل يأخذ في الاعتبار امكانيات الرجل والمرأة الحقيقية ، فهي وحدها قادرة علي الحمل وهي وحدها قــادرة علــي

الولادة وهي وحدها قادرة علي إرضاع الطفل ، وهذه وظائف بيولوجية لايمكن نقلها للرجل وليس المطلوب نقلها ، إلا إذا تطور العلم بشكل مجنون وقرر التلاعب بكل شئ بما في ذلك وظائفنا البيولوجية (وهذا هو قمة الفردوسية وقمة انعتاق الإنسان من كل حدود أخلاقية كانت أم تاريخية أم إنسانية).ولكن ما قد يبدو أنه مجرد احتمالية مجنون اصبح برنامجا سياسياً. وللنظر علي سبيل المثال لا الحصر لمنشور صادر عن جماعة " سكم " اختصار لعبارة إنجليزية والترجمة الحرفية للكلمة هي ، " جماعة التخلص من الرجال" يبدأ المنشور بتأكيد أن الحياة في هذا المجتمع أصبحت شيئاً " يبعث علي الملل الشديد علي أكثر تقدير ولذلك يكون علي السيدات المسؤولات الباحثات عن المتعة أن يقلبن نظام الحكم ويلغين النظام النقدي ويدخلن نظام الصناعة الآلية ويقضين علي جنس الذكور"!

ثم يستطرد المنشور العتيد قائلاً : " لقد اصبح من الممكن الآن للسيدات أن ينجبن دون أي مساعدة من الذكور (ودون مساعدة من الإناث أيضاً) وأن ينجبن إناثاً فقط . وينبغي البدء في هذا علي الفور "، ويذكر المنشور حقيقة بيولوجية هامة مفادها أن جينة الذكر أن هي إلا جينة أنثي غير كاملة ، أي أن جينة الذكور تحتوي علي مجموعة غير كاملة من الكرموسومات ، بمعني آخر أن الذكر ليس سوي أنثي غير كاملة ، أنه شئ مجهض يسير علي قدمين ، شئ أجهض وهو لا يزال في حالة الجينية (وهي مرحلة سابقة للمرحلة الجنينية). ولإنه أنثي غير كاملة يقضي الذكور تحتوي علي مجموعة غير كاملة من الكرموسومات ، بمعني أن يفعل هذا عن طريق البحث عن الأنثي ومصادقتها والعيش معها والإمتزاج بها وإدعاء بإن كل الصفات الأنثي هي صفات مثل القوة العاطفية والاستقلال والقوة والدينامية والقدرة علي إتخاذ القرارات وبرود الأعصاب والموضوعية وتأكيد الذات والشجاعة والتكامل والحويية والجدة وعمق الشخصية إلخ. كما انه يسقط كل سمات الذكورة علي المرأة مثل الغرور والسطحية والتفاهة والضعف إلخ .

الصراع اذن حسبما جاء في المنشور ليس بين الاناث والذكور ولكن بين " السكم " (الزبالة) الاناث المسيطرة الامنات الواثقات بالنفس الخبيثات العنيفات الانانيات المستقلات المتكبرات الباحثات عن المتعة والمغرورات ، اللائي يعتقدن ان عندهن المقدرو على حكم العالم ، واللائي انطلقن الي حدود هذا المجتمع ، واللائي على استعداد للانطلاق حتى يصلن الي ابعد ما يمكن ان يقدم لن ـــ نقول انه صراع بين السكن وبين الاناث اللطيفات السلبيات المستقلات المتحضرات المؤدبات صاحبات الكرامة الخاضعات ، والخائفات اللائي لا يثقن البتة في انفسهن ، بنات ابائهن اللائي لا يمكنهن مواجهة المجهول ، واللائي يردن الاستمرار في الترنح في الحضيض لانه على الاقل مألوف لديهن ، واللائي يردن المكوث مع القرود ، اللائي لا يشعرون بالاطمئنان الا وبابا الكبير يقف الي جوارهن او باعتماد على رجل كبير قوي يشد من ازرهم .

ثم يستطرد البيان في الحديث عن طريقة الاستيلاء على الحكم عن طريق الامتناع عن العمل وبعد ذلك يتخلص الاناث من النظام النقدي ويقتلن الذكور ، ثم يصلن على الفور الي المدينة الفاضلة . وبعد ذلك قد يبقي بعض الرجال ولكن هؤلاء امرهم سهل يسير اذ انهم " سيقضون بقية ايامهم في رعب يشربون المخدرات او يراقبون في سلبية وسكينة الانثي الجديدة المسيطرة . وحيث ان الاناث رحيمات فسيزيدون الرجال باجهزة الكترونية فاذا وقع احد الذكور صريع هوي احدي الاناث فيمكنه مراقبة كل حركاتها وسكناتها بطريقة تشبع غزائزه ودون ان تشعر هي بذلك " !

ان رؤية السيدات سكم المهووسات للمدينة الفاضلة لا تستند الي أي تصور للطبيعة الانســانية ان مــن وجهة النظر الطبيعية ام التاريخية . فنحن اذا سألنا هذه السيدات لم يفضلن الاناث على الرجال لــن يجــدن اى مقياس مقياس سوى مسألة " المزاج " او النشوة او البحث عن المتعه او اى تصور فردوسى اخــر ، فالطبيعــة الانسانية من الناحية البيلوجية تنقسم الى سالب وموجب ، ذكر وانثى او انثى وذكر (سواء كانت الانثى افضــل من الذكر ، فسؤال لايمكن للعلم ان يحسمه ، والسؤال لغو لا طائل من ورائه لانه لا تفضيل من وجهــة نظــر بيلوجية ، لان التفضيل يعنى الاستناد الى قيمة ، وفكرة القيمة لا توجد فى الطبيعة لانها فكرة انسانية محض) . وقد جعلت الطبيعة الجماع بين الذكر والانثى طريقتها التى تتوسل بها الى التكاثر . اما من الناحيــة التاريخيــة فالرجل كائن موجود وأى محاولة لإلغائة تتناقض مع الطبيعة البشرية كما ظهرت عبر التاريخ ، فالرجال لعبوا دوراً اساسياً في تشكيل تاريخ الانسان ولا وجود لهذا التاريخ كما نعرفه دونهم. واعتقد أن التكاثر عــن طريــق الجنس امر طبيعي وممتع اكثر من التكاثر عن طريق أنابيب الاختبار المعقمة! وأنا الان لا أعرف هل أنا جــاد أم أمزح في محاولتي للعثور علي مبرر للإبقاء علي الرجال أمثالي، ولكنني أنزلقت إلي هذا لأنني أحس أن هذا الاتجاه الفردوسي رغم عبثيته وعدميته إلا أنه اتجاه حقيقي مستشر في الولايات المتحدة والمجتمعات الصــناعية المتقدمة ، ولا يعلم أحد إلا الله إلي ماذا سيؤدي.

وحتى لا يقال أن منشور سكم كتبته سيدة واحدة وأنه لا يعبر عن اتجاه حقيقى وأنه مجرد عبث ومــزاح فقد قررت أن أقدم للقارئ مقتطفات من منشور "سيدات نيويورك الراديكاليات" وهى جماعة جادة تعمل جاهــدة لتحرير المرأة. ولقد لخصت هذه الجماعة مبادئها فى هذه الكلمات : "نحن نقف إلى جوار المرأة فى كل شــئ. نحن لا نسأل عما إذا كان شئ ما اصلاحياً أم راديكالياً أم ثورة وإنما نسأل عما إذا كان هذا الشئ فى مصــلحة المرأة أم لا. نحن ضد كل الأيديولوجيات السابقة والآداب والفلسفة نتاج حضارة الذكور الخ الخ. أى أننا عــدنا مرة أخرى لنفس التصورات الفردوسية التى ليس لها سند طبيعى أو تاريخى أى أن الأمر بلاستيك بلاستيك.

هذا التجريد يعود ولا شك للتصور البورجوازى للإنسان على أنه شئ مستقل ومنفصل عــن الآخــرين ولذلك نجد أن التعريفات البورجوازية للحرية لا مضمون اجتماعى أو تاريخى لها، فأنت حر طالما أنك تفعل كل شئ بشرط ألا تضر أحداً، كما لو كان فى مقدورك أن تفعل أى شئ دون أن تدخل فى علاقة مع الأغيار! علــى عكس من هذا نجد أن ماركس عرف الحرية بأنها معرفة قانون الضرورة، أى أن الحرية هى معرفة الحــدود إذ أنه لا حرية إنسانية متعينة دون حدود، لأن الإنسان يكتسب هويته الإنسانية من خــلال الآخــرين. إذا حاولــت تعريف نفسك فستجد أن هذا التعريف عبارة عن سلسلة من الحدود. فأنا رجل (ولست أنثــى) عربــى (ولســت عجمى) مصرى (ولست مراكشى) من دمنهور (ولست من القاهرة) من عائلة المسيرى (ولست من عائلة حلبى) متزوج وأب وأعمل فى مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، أى أن هويتى تزداد بازدياد حدودى. "فالرجل" شئ مجرد بينما نجد أن الرجل المتزوج من دمنهور شئ محدد متعين. والأسرة هى أحد هذه الحدود ولا شــك، وهى حد لأنها تحد من حريتنا، ولكنها هى أيضاً الطريقة الإنسانية الوحيدة التى نكتسب بهــا هويتنــا لأننــا لا نكتسب هويتنا فى الفردسو اللامحدودى وإنما نكتسبها خلال ممارستنا اليومية الاجتماعية التاريخية. حتى الآن لم نكتشف بديلاً حقيقياً للزواج والأسرة رغم قصورهما كمؤسسات اجتماعيــة، وأن كنــت أعتقــد أن الإحســاس "بقصور" الزواج وأنه قيد هو إحساس ناجم عن انتشار الحساسية الفردية التى تزيد من حساسية الإنسان بنفســه بشكل مرضى وتجعله يبحث عن المتعة فى كل شئ وتزيد من توقعاته بشكل فج يسبب له الإحباط الدائم. ولذلك

فإحساسنا بقصور الزواج والأسرة ناجم عن وجودنا فى فترة تاريخية معينة تسيطر عليها فلسفة لا تؤمن بالإنسان ولا بالجماعة. وأنا شخصياً أعيش حياتى مفترضاً أن الحضارة البورجوازية هى انحراف عن تاريخ البشرية.

وقد صدر فلاديمير اليتش لينين عن مفهوم جماعى تاريخى للإنسان حينما كتب خطابيه الشهيرين إلى انسارمان التى كانت فى سبيلها إلى كتابة دراسة ثورية عن الحب والجنس، وأرادت أن تشترشد برأى لينين فى هذا المضمار. وعلى عكس ما هو شائع عن البلاشفة نجد أن لينين أخذ موقفاً يمكن تسميته "محافظاً" من وجهة نظر رأسمالية. فقد أكد لينين فى خطابيه أن الحرية فى الحب لا تعنى انتهاء المشاكل ولا نعنى تحاشى إنجاب الأطفال ولا تعنى الإباحية الجنسية (أى أننى إذا أردت استخدام مصطلحى لقلت أن الحرية فى الحب لا تعنى الوصول إلى الفردوس الأرضى). ولنلاحظ أن لينين لم يساو بين الحب والجنس كما يفعل بعض المفكرين النفيين، كما أنه لا يساوى بين الحب واللذة كما يفعل بعض الثوريين (فالمشاكل موجودة والأطفال – وهم امتداد التاريخى للفعل الفردى – موجودين). أى أن الحب عند لينين ليس جدلاً مغلقاً لأنه ظاهرة اجتماعية، وكل ظاهرة اجتماعية إنسانية هى فى صميمها جدل مفتوح لا نهاية له. ويستمر لينين فى تعريف الحرية فى الحب بأنها التحرر من التعصب ومن الضرورات المادية الملحة، ومن البئة القميئة التافهة، ومن متاعب البتليس والقانون، أى أنه يعنى توسيع رقعة الحرية الشخصية دون تخطى الحدود الاجتماعية والتاريخية. وحينما كتبت له السيدة انسارمان قائلة أن العاطفة العابرة والارتباط المؤقت (الفردوسين) أكثر شاعرية أكثر صفاء من القبل الخالية من العاطفة التى يتبادلها الزوج وزوجته : رفض لينين هذا الطرح الذى يفترض التعارض الفج بين شيئني مختلفين، واقترح أن التعرض بين "زواج بوجوازى صغير خال من الحب ولا نقاء فيه" من جهة و"زواج بروليتارى مفعم بالحب"، من جهة اخرى، أى أن لينين جعل من الزواج والأسرة مدخلاً "لمفهوم الحب، وأعتقد أنه بهذا قد بين الطريق لكثير من الثوريين، فالنظر للفرد من خلال علاقته الاجتماعية (لا كوحدة إنتاجية أو إنسان مستقل) هو جوهر أى نظرة إنسانية ثورية تضع الإنسان فى سياقه. لم يذكر لينين أهمية الحب كنشاط فردى ولكنه وضعه فى مكانه الحقيقى كجزء من نشاط اجتماعى إنسانى أوسع. ففى نهاية أحد الخطابين المشار إليهما يضيف لينين أن الارتباط والعاطفة العابرين قد يكونان مدنسين أو طاهرين فالحب العابر ليس طاهراً بالضرورة (تماماً مثل الزواج)، وتصبح القضية بذلك ليس تفضيل الحب على الزواج أو الزواج على الحب، وهما بنيتان مترابطتان، بل كيف نحول علاقة الذكر بالإنثى إلى علاقة بين فردين سويين يتعاونان فى حرية على الوصول إلى السعادة عن طريق ترجمة إمكانياتهما الحقيقية إلى واقع حى.

٤- النهاية المأساوية الملهاوية

من كل ما تقدم يمكننا أن نخلص إلى أنه ثمة تيار بورجوازى قوى يسرى فى كتابات حركة تحرير المراة رغم ثوريتها المعلنة، بل أننى أعتقد أن حجر الزاوية فى معظم هذه الكتابات هو مفهوم البورجوازى للطبيعة البشرية. فالنظام الرأسمالى قد حول كل الأشياء إلى سلع بما فى ذلك الإنسان، فالإنسان هو الآخر سلعة تباع وتشترى فى الأسواق حسب قوانين العرض والطلب المطلقة. ومن هنا ظهر مفهوم روسو عن "الإنسان الطبيعة" الذى يسير فى الغابة يصفر بسعادة شديدة وواضحة ولكنه يقرر فجأة أنه قد يكون من المستحسن أن يكون هناك عقداً مبرماً بينه وبين الآخرين لتكوين ما يسمى بالدولة.

أن مفهوم الإنسان الطبيعى "الحر" على حد قول روسو والذى لا يربطه بالأرض سوى عقد اجتماعى ممهور بتوقيعه (تماماً مثل العامل فى المجتمع الرأسمالى الذى لا يربطه أى علاقة بعملية الإنتاج سوى عقد عمله)، هو النموذج الإنسانى الكامن وراء فكر كثير من السيدات المتحررات الأمريكيات، ووراء تفكيرهن بخصوص الزواج على وجه التحديد. الزواج فى جوهره علاقة إنسانية بحت، فيها الجانب الاقتصادى وفيها الجانب العاطفى وهى علاقة بين ذات واعية بذات أخرى واعية وليست علاقة بين ذات وموضوع، أو ما هو أسوأ ليست علاقة بين موضوع وموضوع، أو بين شئ وشئ. ولذلك أن نتصور أن الزواج مجرد عقد مبرم بين شخصين هو عملية تبسيط سوقية تدل على احتقار شديد للنفس الإنسانية أو عدم فهم لها، نعم لا بد وأن يوجد عقد ما، كما هو الحل الآن، حيث أن الصراع طبيعة الحياة، وحيث أن المأساة، تماماً مثل الملهاة، إمكانية حقيقية فى أى موقف إنسانى متكامل. ولكن العقد الذى يبرم الآن سواء كان عقداً دينياً أم عرفياً يغطى البداية السعيدة والنهاية التى هى أبغض حلال عند الله، أما العلاقة بين الزوجين فهى متروكة لهما ينظمانها كيفما شاءا. قد يتدخل المجتمع من آونة لأخرى فى هذه العلاقة، وهو حتماً يؤثر فيها ويشكلها ولكنها تظل فى النهاية علاقة مركبة بين فردين. ولكن يحاول بعض محررى المرأة الغاء مؤسسة الزواج كلية لأن السعادة العابرة التى تربط المحببين هى أوقى من عقد الزواج. وهذا الحديث منطقى من بعض الوجوه فالعلاقة بين أى رجل وإمرأة لابد وأن تستند إلى رغبة ما، فإذا ماتت الرغبة أو ضمرت فعقد الزواج لا يبقيها بأية حال (إلا فى القليل النادر). ولكنى أعتقد أن معظم الناس لا يعتبرون أن عقد الزواج هو الصلة بين الزوجين وإنما هو مجرد الشكل القانونى المجرد لعلاقة موجودة بالفعل، ولذلك فإن ورقة الزواج لا تدعى لنفسها أكثر ما تستحق.

ولكن الطريف أن حركة تحرير المرأة تنادى بشئ ثم تنتهى بنقيضه (الرغبة فى الفردوس الأرضى تؤدى عادة للجحيم!) فزعماء الحركة ينادون بإلغاء عقد الزواج التقليدى لتحقيق أكبر قسط من الحرية، وفى الوقت ذاته يدافعون عما يمكننا تسميته "بعقد الزواج الشامل"، وهو يشبه من بعض الوجوه عقد استئجار شقة أو شراء أرض، فمثل هذه العقود تحاول أن تصل على الشمول وتحاول تغطية جميع الجوانب القانونية وكل الاحتمالات المنطقة والرياضية. وقد وصف العقد بأنه ليس مجرد وثيقة قانوينة، بل هى بالفعل طريقة جديدة للحياة، أو كما تقول إحدى محررات حركة تحرير المرأة "أن العقد هو وسيلتنا لمواجهة ألفى سنة من التقاليد" (ألفى سنة من التاريخ أيضاً). وهم محقون، ففكرة العقد الشامل فيه رؤية كاملة للطبيعة البشرية تغطى لا البداية والنهاية وحسب بل جميع جوانب الحياة الزوجية من غسيل صحون إلى الاعتناء بالأطفال (ولنلاحظ كيف أن الثورة الفوضوية التى تحاول إلغاء كل الحدود بدعوى إعطاء الحرية المطلقة، هى ثورية شمولية تسقط فى الجماعة وتنكر الحرية الفردية الإنسانية. فالعقد هو عملية برمجة كاملة لحياة الإنسان، أما الشكل التقليدى للزواج فهو يحترم خصوصية العلاقة بين الزوج وزوجته ويتركها لهما لأنهما مجال حريتهما الفردية).

وفكرة العقد الشامل ترجع جذورها إلِ القرن التاسع عشر والمفكر الإنجليزى الثورى بول جودوين الذى تزوج من المفكرة الثورية المطالبة بتحرير المرأة مارى ولستونكرافت، فلننظر الآن إلى هذا الزواج الذى يحرر الإنسان من كل القيود والأعباء. استأجر جودوين شقة على بعد عشرين منزل من منزل زوجته ولكنه كان يذهب ليزورها كل صباح. وقد وصف جودين علاقته هذه فى خطاب له قال فيه "وحتى لا تبدو هذه العلاقة على أنها مثل تلك العلاقة البذيئة الوضيعة المسماه بالزواج أقام الزوجان منزلين منفصلين، على ألا يزور الزواج زوجته إلا كما يزور الرجل عشيقته، فيكون كل منهما مرتدياً أبهى ملابسه وحجرات المنزل معدة لاستقباله. وقد وافق

الزوجان على أنه من الخطأ بمكان للزوج والزوجة أن يكونا سوياً أينما ذهبا إلى مجتمعات مختلطة من الـذكور والإناث، ولذلك فهما كان يبحثان عن أى فرصة لا لاتباع هذه القاعدة بل لخرقها". الافتـراض هـو أن علاقـة الزوج بزوجته علاقة بسيطة للغاية يمكن التحكم فيها عن طريق العقد. لنتخيل هذا الزوج الذى عليه أن يـذهب لزوجته كل صباح وقد استيقظ واكتشف أنه قد ألم به زكام خفيف والدنيا تبرق وترعد فى الخارج، هل سـيعود إلى فراشه الدافئ أم أنه سيصارع العناصر الطبيعية حتى يصل لزوجته لأنه إذا لم يذهب لماتت قلقاً عليه مـن فرد قلقها أو لفسخت العقد حتى لا تموت؟ هنا سيتوكأ بطلنا الثورى المزكوم على عصاه ويذهب وسيطلب مـن زوجته تغيير العقد حتى يزورها وتزوره هى الأسبوع الآخر. ولكن هذا لن يغير من الموقف شـئ لأنهـا قـد تصاب بآلام روماتزمية خفيفة أو حادة فى أوقات أعمالها الزوجية الرسمية!

ولكن المسألة أعمق من زيارة تتم فى الشتاء، فنحن لا نرتدى أبهى ملابسنا إلا حينما نذهب إلى طبيـب الأسنان الكريه أو على مدير المستخدمين المقيت، ولكن حينما نذهب لزيارة صديق حميم، فنحن نـذهب بـذاتنا الحقيقية، بكل آلامها وأفراحها، فعلاقتنا بأصدقائنا هى علاقة فى السراء والضراء، لا يحكمها عقد أبلـه وإنمـا تحكمها احتياجاتنا الإنسانية واعتبارات نفسية عديدة. ولذلك فزوجتى تحتمل رذالتى ومطالبى العديدة فـى يـوم وترفضها فى يوم آخر. تتحملنى يوم احتياجى لها وترد الصاع صاعين فى أيام قوتى. وأنا أتقبل لا عقلانياتهـا فى يوم وأرفضها فى يوم آخر، وبذا تكون الحياة الزوجية أمراً خلاقاً وليس علاقة عمل روتينية. أن جـودوين رغم كل ثوريته، ورغم كل راديكاليته ومناصرته للضعفاء والفقراء هو فى النهاية ضحية تبسيطاته البورجوازية السوقية الفردوسية، فهو لا يمكنه أن يتصور إلا الإنسان الطبيعى "الوحيد" والذى يعيش فى الفردوس الدائم (ولذا فهو لا يزور زوجته بل يزور عشيقته). أنه الإنسان المنفصل الذى يقف وحيداً فى مجابهة الآخرين من الأغيار يرجو من الله أن يكفيه شرهم.

ولأن الفكرة رغيبة علينا تماماً لا بسبب تراثنا العربى وحسب وإنما لأنها منافية لكل مـا نعرفـه عـن الزواج من كل الحضارات، رأيت أنه قد يكون من المفيد أن أترجم مقتطفات مطولة عن عقد المسـتر شـولمان وزوجته، وهو عقد نموذجى قلده الكثيرون. يبدأ العقد مثل إعلان حقوق الإنسان بتأكيد بعض المبادئ النظرية :

١- نرفض الفكرة القائلة بأن العمل الذى يأتى بالربح الأكثر هو العمل الأكثر قيمة.

٢- نحن نؤمن بأن عضو كل أسرة لها (أو لهما) حق كامل فى وقته وعملـه وقيمـه واختباراتـه، وأن أرادت هى (أو هو) أن ينفق هذا الوقت فى كسب المال فهذا من حقه وأن لم يرد هذا فهذا أيضاً من حقه.

٣- نؤمن كآباء بأننا يجب أن نقتسم مسؤولية الاعتناء بالأطفال والمنزل – ليس العمـل وحسـب بـل المسؤولية.

٤- من ناحية المبدأ يجب أن نقسم الأعمال المنزلية إلى نصفين ٥٠ – ٥٠، ولكن يمكن عقـد صـفقات بالاتفاق الثنائى وأى انحراف عن التقسيم النصفى يجب أني كون متلائماً مع الطرفين، ويجب أن يكون جـدول العمل مرناً. ولكن فى الوقت الحاضر يجب أن يوافق على كل التغييرات بشكل رسمى. أن شروط هـذا العقـد حقوق وواجبات وليس امتيازات وهبات.

الأعمال المنزلية : الطبخ : كل من يدعو ضيوفاً يقوم هو بنفسه بشراء الطعام وبالطبخ وغسل الأطباق (ماذا لو كان لهم أصدقاء مشتركين؟ هل تسقط العقد ونتعايش أم نكتب عقداً جديدا).

الغسيل: الزوجة تغسل الغسيل الزوج يجمع الملابس المتسخة. هى تضع الملايات على السرير وهو ينظم السرير (الصورة المجاورة للعقد فيها مستر ومسز شولمان ينظمان السرير سوياً، فكيف حدث هذا؟ التفسير يسير، لم يتمكن المستر شولمان بمفرده من القيام بهذه العملية واضطر أن يلف حول السرير عدة مرات حتى انقطع نفسه لأنه عملية تستلزم التضامن الإنسانى، فنادى على المسز شولمان وطلب منها المساعدة ففعلت ولم تستشر العقد المبرم بينهما، لأنها بشر وليست محامياً.

٢- ب) تقسيم الأعمال. فى الصباح إيقاظ الأطفال. إخراج الملابس والكتب والواجبات والنقود وابونيهات الأتوبيس. تسريح شعرهم. إطعامهم. (عمل القهوة لنا). يتناوب الأبوان القيام بكل الواجبات كل أسبوع. الشراء: تقوم الزوجة بوجه عام بشراء الطعام أما الزوج فيقوم بشراء الشياء الخاصة (ماذا قرر الزوج أن يأكل كافياراً. هل هذا طعام، أم شئ خاص فلنستشر المحامى على الفور ! الزواج معفى من العمل يوم السبت، والزوجة يوم الأحد (ومن ساقابل يوم السبت إن كنت هذا الزوج؟ عشيقتى أم مدير أعمالى؟).

وحتى يعم السلام بين الجميع رأى مستر شولمان وزوجته أن يعقد طفليهما عقداً تكميلياً.

عقد تكميلى مبرم بين الأطفال :

تعد بولى (اسم ابنتهما) المائدة اما تدى (اسم ابنهما) فيقوم بحمل الأطباق بعد الطعام، ويمكن للأطفال تبادل الأعمال الموكلة لهم (كما يفعل الأبوان) (وذاك الوحدة الإنتاجية من تلك الوحدة الإنتاجية فهم ليسوا بالأشبال ولا بالأسود!).

بالنسبة للأطفال : فى العطلة الأسبوعية تقسم بالتساوى كل الأعمال الخاصة (بالبلاج وبالحديقة العامة وبحديقة الحيوان). والآن بعد أن أبرم العقد فلترفرف السعادة الزوجية على الجميع ولتفض على الوحدة المذكورة التى يسميها العوام بالزواج والمتعاونة مع الوحدة المؤنثة المسماه بالزوجة. هل فعلا قام العقد بتنظيم كل العلاقات؟ ماذا يمكن أن يحدث لو أن تنتظر الزوجة حتى تزول الكربة؟ وماذا يحدث لو أن الرجل بعد أن تزوج على هذه الطريقة الليبرالية أصبح ماركسياً أو رجعياً بعد الزواج ورفض المبادئ النظرية؟ ماذا عن المواقف الزوجية المركبة اليومية مثلاً؟ ماذا لو ألقيت بطبق الفول العتيد، أو حتى كوب اللبن الرقيق، فى وجه زوجتى التى تعاقدت معى؟ وماذا – وهذا هو الطامة الكبرى من وجهة نظرى – ماذا فعلت هى ذلك أمام الرأى العام العالمى من أصدقاء أو طالبات أو أقارب أو حساد؟ هل أذهب ساعتها واستشير العقد والأساس النظرى بكل هدوء، أم أقرر على الفور الثأر لكرامتى ولشرفى الضائع وأقتل زوجتى أمام الملأ حتى يرتدع الآخرون؟ أم ربما يتدخل أولاد الحلال ويصلحون ما بيننا. أو ربما أهدأ من نفسى وأتذكر أن زوجتى لم تتمكن من النوم ليلة أمس بسبب الرطوبة والحر والكلب روى اللعين الذى لا يكف عن النباح، وأتذكر أيضاً الأنباء الحزينة التى سمعتها زوجتى فى هذا الصباح وأتذكر أننى جرحت شعورها أمام طانط فلانة التى لا تطيقها زوجتى، عند هذا قد أعدل عن تنفيذ حكم الإعدام وأزيل الفول واللبن وأتمتم على الطريقة المصرية أو العالمية "حصل خير" أو ما شابه.

ان العقد لا يسمح بمصنل هذا التكيف وبمثل هذا الارتفاع والانخفاض (أو التذبذب التاريخى الجدلى) فهو إنتاج عقلية بورجوازية فردوسية دائرية لا تقبل الجدل كحقيقة أساسية، كل ما تملك الإطار الثورى المقترح هـو أن تفضى العقد فى عقلانية شديدة – أى أن الفردوس يقودك فى خط مستقيم إلـى الجحـيم. وتوجـد الآن فـى كاليفورنيا محاكم تسهل الأمور لك إذ أنه على الزوجين الراغبين فى فض العقد – أى فى الطـلاق سـابقاً – أن يكتبوا اتفاقهما ويرسلانه بالبريد وسيستلمون ورقة الطلاق بالبريد أيضاً (ولا شك أنه توجد الآن مكاتب مختلفـة تيسر لك هذا الأمر، حتى يمكنك أن تهدم حياتك الزوجية فى أقل وقت ممكـن وبـأرخص التكـاليف) – أى أن واقعنا الأرضى يمكنه أن يتحول إلى ما يشبه المعمل (أو الدائرة) فى بساطة علاقاته وفى ميكانيكيتهـا. ولكـن المعمل الإنسانى هو جهنم وليس الفردوس، وهذه هى طبيعة وجودنا الأرضى إذ أنه يبدو أن كل مـن يحـاول تشييد الفردوس الأرضى وتحطم الحدود التاريخية، يحطم هويتنا وفرديتنا. وهذا ما حدث لحركة تحرير المـرأة (ولحركات فردوسية بروجوازية أخرى) فى تأرجحها من رفض كامل لفكرة التعاقد بين الرجل والمرأة إلى عقد شامل يكبلهما ويحرمها من استخدام عقلهما ووجدانهما.

العقد مثل الكومبيوتر يعطيك إجابات مبتسرة ولا يمكنها أن تغطى جميع جوانب الحياة المركبة، وإذا كان العقل الإلكترونى قدم للأمريكان الإجابات الخاطئة بالنسبة لحرب فيتنام فإن العقـد الميكـانيكى سيضـللهم لأن المطلوب هو إصلاح نوعية الحياة بنفسها، والبحث عن الخلاص والحياة الجديدة من خلال الحدود المتعينة.

كلمة ختامية

التاريخ والفردوس فى القلب

فى المرة الأولى ذهبت إلى الولايات المتحدة مع زوجتى، وحينما عدنا عام ١٩٦٩ مع ابنتنا، كانت أمى تنتظرنى فى الميناء وكان معها أختى وأخوات زوجتى وأبناء عمومتى. أما أبى فكان غائباً لأن الله كـــان قـــد توفاه، فزرت قبره فى دمنهور وقرأت على روحه الفاتحة، عل الله يسكنه فسيح جناته.

وفى المرة الثانية ذهبت بمفردى وعند عودتى كانت زوجتى وطفلينا وأخواتها ينتظروننى فى المطـــار، وليلتها عدنا للمنزل وشربنا الشاى ولم أنم، وكانت هذه إحدى المرات النادرة فى حياتى التى سمعت فيه صـــوت المؤذن عند الفجر.

<u>فهرست</u>

الصفحة